زمن السخرية

زمن السخرية

مجموعة قصصية

حازم إسماعيل السيد

للنشر والتوزيع
Arabic Library

اسم الكتاب: زمن السخرية
اسم الكاتب: حازم إسماعيل السيد
تصميم الغلاف:
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2020 / 11163
الترقيم الدولي: 5 – 7 – 85718 – 977 – 978

للنشر والتوزيع
Arabic Library

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة
للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

مقدمة

تحمل حياتنا من الهموم والآلام ما تحمله! وتلك حقيقةٌ وأمرٌ واقعٌ لا ننكره ولا نهرب منه، ولا يهوِّن علينا أمرها غير الابتسامة البريئة والضحكة التي تخرج من القلب، نسخر من أنفسنا ونتضاحك على حالنا... تمامًا مثلما طلب الخليفة من أبي دلامة الشاعر الكبير يومًا في مجلس دولته أن يختار أحدَ الحضورِ من الوجهاء والأعيان فيهجوه بشعره وإلَّا قطع لسانه، وكان من المعلوم يقينًا للشاعر أن الحياة لن تصفو له ساعةً إن هجا أحدَهم، ولم يستطع أبو دلامة أن يتهرب من الأمر والخليفة واقف عند رأسه يلوح بالعقاب!!

لقد علم أنَّه - لا محالة- واقعٌ في شرٍّ أعماله فلم يجد غير أن يهجوَ نفسَه أمام هذا الجمع ففعل، وضحك الخليفةُ وتضاحك القومُ، وهكذا استطاع الشاعرُ بذكائه وسرعة بديهته أن يجدَ لنفسه مخرجًا فأمن شرَّ الخليفة وغدر القوم، ونال عطاياهم، وخلَّد لنفسه في التاريخ موقفًا وإن كان ذمًّا وهجاءً![١]

---

(١) يروى أن أبا دلامة دخل على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، فقال له المنصور: عاهدت الله يا أبا دلامة إن لم تهج أحدًا ممن في المجلس لأقطعن لسانك، فسكت أبو دلامة قليلًا، وقال في نفسه: قد عاهد وهو لابد فاعل! ثم نظر إلى أهل المجلس فإذ بالخليفة وابناه جعفر والمهدي، وابن عمه، والتفت يمنة ويسرة ليرى أحد الخدم ليهجوه، فما وجد أحدًا، فهجا نفسه بأبياتٍ من الشعر صدَّرها بقوله: لا أبلغ إليك أبا دلامة *** فليس من الكرام ولا كرامة

ونحن نفعل فعل ذلك الشاعر مع اختلاف أنَّه كان يتكلَّمُ بلسان الفرد ويختصُّ بالهجاء شخصَه بعينه، واسمه، وخاصته، أمَّا نحن فنتكلم بلسان الجماعة التي ننتظم فيها أفرادًا وجماعات، فالمجتمع يتضاحك ويهجو نفسه: مواقفه، وأفعاله، وردود أفعاله، بغير ذاتٍ، أو هيئةٍ لشخصٍ، أو عائلةٍ، أو وجهةٍ، أو بلدةٍ...

فأنا أتحدث عن حالةٍ عامَّةٍ للمجتمع كلِّه بسخريته، وفكاهته، وخفة دمِّه، وذلك في محاولة مني لرصد عيوب المجتمع من خلال مواقف كوميدية ساخرة، كلُّنا يقارفها ويقع فيها بقصدٍ متجملًا، أو متوهمًا، أو خادعًا لنفسه قبل أن يخدع غيره، أو بغير قصدٍ حين تأتي الأفعال وليدة مواقفٍ مفاجئةٍ وانعكاساتٍ لها... كلُّها من واقع حياتنا المعاصر تعكس ما تحمله أنفسنا من تناقضات عجيبة، وأفكار غريبة، وكثيرٍ من الظنون، والتصورات، والأوهام التي لا ترتقي إلى حقائق!

ولكم أعجب ممن يضحك وهو في أشد حالات الحزن، والألم، والضغوط النفسية، وهكذا، فإنَّ "شر البلية ما يضحك!"... وإن كان هذا الأمر يحمل من الهمِّ والأسى ما يحمله، فيكفينا أن نطلق بالسخرية ضحكةً تقهر اليأس وتغرس للأمل في النفوس راياتٍ! فالضحك حياة، وأمل، وبهجة، وترسيخٌ لمواقفٍ، وهزيمة للركود والتبلد، وقهرٌ لليأس، ومحاولة

لتصحيح الأوضاع، وتقويم النفس، ورصد المشكلات، للوقوف عليها وتدبرها... وإن كان الأدب لا يحمل مهمة الأخصائي الاجتماعي ولا المحلل النفسي اللذين يحددان المشكلة ويضعان الحلول لها، لكن المهمة الحقيقية للأدب هي التغلغل في أعماق النفس البشرية لرصد مشاعرٍ وأحاسيسَ في نفوسٍ تغمرها همومٌ، وأحزانٌ، وحسراتٌ، أو تتطلع إلى آمالٍ، وطموحاتٍ ورغباتٍ... ويترك لعقل القارئ مساحةً من الحرية للتأمل، والتدبر، والتفكير!

وإن كنت أرى من وجهة نظري أن الأدب يحمل جانبًا أخلاقيًّا إصلاحيًّا، ليس بأن تُلزِمَ قارئك بحلولٍ معلَّبةٍ تقدمها وترسم له مسارًا يسلكه للوصول إليها، ولكن بما يحمله إبداعك من نصحٍ تصوغه في قصةٍ تكون كمثلٍ يُضرب أو حكمةٍ يضعها نصب عينيه لتكون موضع اعتبار وتدبر...

وكما يقول الكاتب الساخر الكبير "برنارد شو": "عندما يكون الشيء مثيرًا للضحك، فابحث جيدًا حتى تصل إلى الحقيقة الكامنة وراءه!"، وهذا تمامًا ما أقصده من وراء قصص مجموعتي هذه التي تحمل من همومي وهموم مجتمع أحيا فيه قضايا ورسائل عميقة تغلِّفها الضحكة

الصافية والبسمة البريئة تخالط نفوسًا متعطشة لشيءٍ يخفف شيئًا من مرارتها ويقدم لها السعادة ولو بعض حين!

ما أعذب تلك البسمة التي ينشق لها ثغرك فيسعد لها قلبك! وما أجمل تلك الضحكة حين تفسح وجنتان متوردتان عن لؤلؤٍ منظوم ينشقُّ عن ثغرك كالبرعم الندي يتفتق عن زهرة برية متفتحة، وتكون للعينين هما الأخريين منها نصيب كمرآتين فضيتين تنعكس عليهما تلك الضحكة الطفولية البريئة فتزيد الوجه نضارةً وحسنًا، وتشرق على القلب لها شموس تشيع في جنباته النور، والدفء، وبهجة الحياة، وهكذا تكسو البسمةُ بستانَ القلبِ ربيعًا دائمًا، وتبدد عن سمائه غيمات الكآبة والشقاء...

وتلك رسالة أحملها للقارئ العزيز الذي أختصه بوحي قلمي الذي يفيض بنبض قلبي وعصارة فكري، مشبعًا بآمالي، وطموحاتي، ومشاعر حبٍّ صادقٍ، ومودةٍ، وإخلاصٍ...

المؤلف

الدنيا مظاهر

لم يعرف أهلُ الحيِّ رجلًا في مثلِ وسامته ولا في أناقته وحسنِ هندامه... كان الأستاذ (عادل) يسير في مساره اليوميِّ المعتاد لا يشذُّ عنه قدر أنملة... من بيته إلى العمل، ومن عمله إلى البيت، لا مكان له سواهما... يستقلُّ وسيلةَ المواصلات نفسها، ويسير في الطريق نفسه...

لم يكن جيرانه يعلمون شيئًا عن حقيقة عمله الروتيني البسيط كموظف بدار المحفوظات، ولا عن الجنيهات المعدودة التي كان يتقاضاها أول كلِّ شهرٍ؛ فقد كان كتومًا إلى أبعد درجةٍ، ليس له أصدقاء، ولا يتحدَّثُ كثيرًا مع جيرانه... كل معرفتهم به تكشف عنها هيئته التي يبدو بها في أعينهم وكيل وزارة، أو موظفًا كبيرًا في بنك، أو شركة استشارية كبرى...

وكان زملاؤه في العمل يرونه في صورة المتفضِّل على العمل الحكومي؛ فهو ليس في حاجة إلى راتبه البسيط، وإنَّما يشغل به وقت فراغه، فهو في نظرهم الشاب الثـري "الوارث" الذي وُلد وفي فمه "ملعقة ذهب"... و"الناس لها المظاهر"... ورغم أنَّه أصبح على مشارف الأربعين إلا أنَّـه لم يزل يحتفظ برونق الشباب... كان الأستاذ (عادل) - أو كما يسميه جيرانه (عادل بيه)- مطمعًا لفتيات الحيِّ وجاراته الطيبات، كلُّ واحدةٍ منهن

تتمنَّاه زوجًا لابنتها، وأمنيةً لزميلاته في العمل اللائي مللن من انتظار فارس أحلامهن على حصانه الأبيض...

كان (عادل) في حياته أشبه بثمرة الفاكهة الناضجة لها قشرةٌ خارجية ولبٌّ داخلي، وقد تكون القشرة جميلة براقة ومحتواها هشٌّ مهترئ... كان خارج بيته – وهي الصورة التي يعرفها الناس من حوله – في غاية الأناقة يبدو في ثيابه دومًا متألقًا... بدلته في لمعة قماشها ونظافة سترتها آخذةً بالأبصار، دائمًا مزررة، وتزين رقبته رابطة عنق تحكي مع لون قميصه من الائتلاف قصة حبٍّ، وهيام، وتآلف، وانسجام، وغالبًا ما تزدان بدبوس فضيٍّ لامع أو ذهبيٍّ برَّاق، وكذلك أزرار أكمامه، هذا كلُّه علاوة على ساعته الذهبية، وحذائه الأسود اللامع... وهذا المظهر الجذَّاب لم يكن ليلفت الأنظار لولا صاحبه الذي يميزه ذوقه الرفيع، وثقته بنفسه واعتداده بها، ولباقته، مع غموضه، وقلة فضوله، وندرة كلامه، إلى جانب وسامته الظاهرة التي تستلفت انتباه جميع من حوله ليس في عمله ولا بين جيرانه فحسب، ولكن بمجرد ما يسير في الطريق تلاحقه نظرات يترفَّع عن صاحباتها المحدِّقات فيه...

لم يكن أحدٌ يعرف عنه شيئًا سوى أن أبويه كانا طيبين – رحمة الله عليهما – ولم يكن له إخوةٌ أو أقارب...

لم يترك له والداه من متاع الدنيا سوى شقةٍ في عمارة محترمة بحيٍّ "مصر الجديدة" ذلك الحيُّ الذي يجمع بين الرقي والهدوء، استأجرها أبوه منذ زمنٍ بعيد... قبل أن تتفجَّر مشكلة الإسكان، وتتقدم البنايات الشاهقة فتزحف على البنايات القديمة ذات اللمسة الهندسية البديعة فتكتسحها، وقبل غزو التمليك، ونظام المفروش، والإيجارات الجديدة لأحياء القاهرة العريقة...   وقد دخل (عادل) بذلك عالم المتملكين وسكان هـذا الزمان "المتريشين" وإن لم يكن في الحقيقة منهم؛ فلا يزال إيجار شقته على ما كان عليه منذ أيام والده عشـرون جنيهًا، وهذا بالطبع كان سرُّ بقائه في هذا السكن... المهم أن يراه زملاؤه في عمارةٍ محترمةٍ بحيٍّ راقٍ، ويراه جيرانُه من سكان العمارة وكأنَّه واحدٌ منهم!

وبين جدران شقته كان يحيا حياةً متقشفةً إلى أبعد الحدود، كان يمكن أن يعيش بمرتبه الهزيل عيشةً معقولة وخاصةً مع إيجار مسكنه المتواضع، لكنَّه كان مغرقًا في المظهرية وحبِّ التأنق مما يجعله يتورَّط أكثر من مرةٍ، ففي يومٍ وأثناء ارتياده أحد "المولات" الراقية وفي جولةٍ له داخل أروقة أحد المحلات التجارية بها رأى قميصًا أعجبه فسأل عن ثمنه - وكان يساوي نصف راتبه – وهربًا من الإحراج أمام أحد معارفه اشتراه من فوره بجميع ما كان معه!

وكان (سيدهم) الساعي بالمصلحة دائمًا ما يقصده في شراء محتويات حقيبته المكتظة بأصناف العطور، والملابس، والمناديل، والجوارب... فقد كان (عادل) بك زبونه الدائم، بل كان أحسن زبائنه؛ لأنَّه لم يكن يشكك أبدًا، بل يعطيه كلَّ ما يريد ليحافظ على صورته أمام زملائه!

وكان لابد لهذا الإسراف من نتائج سلبية بدت صورتها واضحة في حالة الأثاث القديم الرثِّ الذي تحتويه جدرانُ شقته، والذي اشتراه والده لزواجه منذ نصف قرن حين وضع قدميه في هذه الشقة لأول مرة، كما أنَّه لم يغير حتى لون طلائها، ولا غضاضة في ذلك لأنَّه لم يكن يستضيف أحدًا...

ولم يكن اهتمامه بطعامه على قدر اهتمامه بمظهره، فثلاجته تكاد تكون خالية إلَّا من بعض ما يسد جوعه، فلم يكن يومًا أكولًا، مما ساعده على الاحتفاظ بقوامه الممشوق ورشاقته التي لا تخطؤها أعين بنات جيرانه وزميلاته في العمل وهن يتفرَّسنه من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه...

لم يكن (عادل) يعيرهن اهتمامًا فقد كان يجد متعته في الظهور أمام الجميع كنجوم السينما الذين تطاردهم أعين المعجبات، ويخشى أن يتزوج فيفقدهن!

كم خاطب نفسه قائلًا:

- الزواج مكلف يحتاج أموالًا طائلة، فأين لي بنفقاته؟! ثم إني أملك حريتي فأين عقلي حتى آتي بمن يقيدُّها ويفرض عليَّ حياةً بائسةً أدور في رحاها كالثور في الساقية، ثم أسقط يومًا من الإعياء بعد أن يعجِّلَ التعب والجهد بشيخوختي؟! الحمد لله أنا في نعمة...

وكان (عادل) في مظهره الأنيق، وحذائه اللامع، ورابطة عنقه المعقودة حتى في عزِّ الحرِّ، ورائحة "البارفان" الزاعق الذي يفوح منه في نظر الناس متواضعًا، بل شديدَ التواضع!! يمشي على قدميه بين الناس ويستقل المواصلات العامة مثلهم! والناس لها المظاهر ولا يدري بحقيقة الناس إلَّا خالقهم...

كان معتادًا أن يستقلَّ "الترام" في رحلتي الذهاب إلى العمل والإياب منه...

- لا أحبُّ قيادة السيارات، لذا لم أشترِ سيارة... أنا أفضِّل "الترام"... "الترام" كان ولا يزال وسيلة مواصلات البشوات منذ أُنشئ حي "مصر الجديدة"...

تلك كانت إجابته عن سؤال اعتاد سماعه من زملائه في العمل.

كل صباح كما كان دأبه دائمًا... يغلق باب شقته خلفه يتبعها بسكتين متتاليتين لكالون الشقة، ويضع مفتاحه في جيبه... تطرق سمعَ جيراه المتلصصين طرقاتٌ خفيفة منتظمة هي وقع خطواته على درجات السلم، ثم يخرج من بوابة البناية ليسير بطول الشارع حتى يصل إلى محطة "الترام"... ينقِّلُ عينيه بين الطريق أمامه وبين بوز حذائه اللامع ليتدخل في الوقت المناسب ويعالج الأمر بمنديله الورقي، فكلما سقطت عليه ذرة تراب أسرع إلى حافة الرصيف يسند قدمه عليه ويزيل ما علق به، ثم يستكمل مسيره، وكان ذلك يدفعه إلى الحرص كلِّ الحرصِ على ثبات خطواته وتجنب التراب المكوم في بعض أجزاء الطريق.

كان (عادل) يذهب إلى عمله مبكرًا قبل ازدحام المواصلات وهكذا يضمن أن يحافظ على هندامه منسَّقًا ومظهره مرتَّبًا.

وكالمعتاد... وبعد يومٍ من العمل... خرج في رحلة العودة وسار خطوات وئيدة حتى وصل إلى محطة "الترام" يزهو بحذائه اللامع، وثيابه المهندمة... أقبل "الترام" يتهادى، ويئن تحت وطئة أعدادٍ غفيرة من الركاب كانوا يتدلُّون من أبوابه ونوافذه، لكن لا مفرَّ من استقلال تلك المواصلة في وقت الذروة مع هذا الزحام، المهم أن يحفظ قدميه بعيدًا عن وطء أقدام البشر الذين تكتظ بهم عربة "الترام"...

وبعد جهد جهيد تمكن أن يظفر لنفسه بمكانٍ في إحدى عربات "الترام"، ثم تنحى جانبًا وأسند ظهره إلى عمودٍ في مواجهة الباب...

وجوهٌ معتادةٌ مألوفةٌ، كلٌّ شيءٍ يسير وفق إيقاعٍ رتيبٍ مملٍّ اعتاد أن يراه كلَّ يومٍ، اللهم إلَّا امرأة رثَّة الثياب منحنية الظهر توزِّع على الركاب دعاءها بطول العمر وسعة الرزق... بكلمات استعطاف وتوسل تستدر عطفهم ورحماتهم... تتسوَّل، وحتى هذا الأمر لم يكن عليه بالغريب فقد اعتاد على رؤية أمثال تلك المرأة التي تزدحم بهن عربات "الترام" وكافَّة المواصلات... وعلى الرغم من أن العربة كانت مكتظة بالركاب وكانت المرأة طاعنة في السن، إلا أنَّها كانت بحقٍّ ماهرةً في الاندساس بين الركاب عبر الممر الضيق المحصور بين مقاعدهم المتراصة، ربما كان لمظهرها المزري وللاتساخ الشديد الذي اتسمت به هيئتها دوره في نفور الناس منها مما سهَّل عليها أداء مهمتها تلك بمهارةٍ تُحسَد عليها...

لم تخطئ العينُ حالة التأفف التي ارتسمت على وجه أستاذنا الأنيق المتحذلق، وما كان منه إلَّا أن أشاح بوجهه عنها، وتوجه ببصره إلى الجانب المقابل كمن يخشى أن يعدو عليه بؤسُها وسوءُ حالها، أو تعلق صورتُها المزرية بخياله فتعكِّر مزاجه وتكدِّر صفوه بقية يومه!

لم تمضِ لحظات على هذا المشهد حتى تعالى صوتها بالصراخ:

- الحقوني... الحقوني... اتسرقت!

وعاجل اللصُّ الجميع بالقفز من "الترام" أثناء سيره... انتهز الفرصة حيث دهشة الناس وذهولهم، "يتعازمون بعضهم على بعض" في اللحاق به... لم تكن حادثة السرقة وقفزة اللصِّ البهلوانية هي التي عقدت الدهشة على الوجوه وشلَّت الأقدام و"سمَّرتها" في مكانها، وإنَّما صراخ العجوز المتواصل:

- اتسرقت... (١٢٠٠) جنيه... يا عالم يا هووو! شقايا طول اليوم!

نزلت كلمات العجوز على أسماع الركاب كالصاعقة... ونالت من بطلِ قصتنا ما نالته من الحيرة والعجب!

عجوزٌ تتسول مثل راتبه في بعض يومٍ! وهو من يحرق نفسه في العمل ليبدو في نظر الناس "بيه محترم" ملء السمع والبصر! لا يحمل في جيبه إلا ستون جنيهًا هي كل ما تبقى معه من مرتب الشهر الذي ما انزاح إلا نصفه! سبحان الله! له في خلقه شئون!!

وما قطع حيرته إلا صوت "الكمسري" وهو ينادي على التذاكر بطريقته المألوفة...

بادر (عادل) إلى جيبه الخلفي بتلقائية ليخرج حافظة نقوده... أزاح طرف سترته الخلفي ليخرجها من جيبه، لكنه أحسَّ بخفَّةٍ في ذلك الجيب... كانت الحافظة غير موجودة... لقد سُرِقتْ بما فيها!

كادت تخرج صرخةٌ من فيـه مثلما فعلت العجوز، لكن أين هو من العجوز؟! وأين ما كان بحوزته من المبلغ الذي سُرِقَ منها؟!

كتم صرخته في صدره حتى لا يتسبب لنفسه في حرج... فهو السيد المحترم وليس في حافظته سوى هذا المبلغ التافه! ازدرد غيظه وسكت...

بحث في جيب سترته حتى اهتدى إلى عملةٍ فضية، حمد الله أن وجدها وإلَّا من يدري ما ستكون عليه صورته أمام الناس؟! أعطاها "للكمسري" وأخذ تذكرةً دسَّها في جيبه...

وصل "الترام" إلى المحطة التي ينزل بها فنزل درجاته في حزم...

استدار ليرمق الترام شزرًا وهو ينطلق في مساره مسرعًا... همهمةٌ وضجرٌ كظمهما بين فكيه المنطبقين على بعضهما تصطك أسنانه غيظًا...

تمالك نفسه واستعاد هدوءه سريعًا، وقال في نفسه:

"لا يهم... ستون جنيهًا!"

الأوراق... البطاقة الشخصية! استخرِجُ غيرها... مش مشكلة!

عدَّل (عادل) بك من سترته، وشدَّ رابطة عنقه، وسار بخطواتٍ واثقةٍ نحو مسكنه متعاليًا على نظرات المعجبات المتطلعة إليه المبهورة بأناقته وحسن هندامه...

*****

أزمة أخلاق

توقَّفتْ السيارةُ الفارهةُ على جانب الطريق تنعكسُ على سطحها المعدني اللامع وزجاجها العاكس أشعةُ الشمسِ المبهرة بتوهجٍ يطمس في الأعين المنبهرة أيَّ أثرٍ لراكبها المتواري داخلها، والذي لابد أن يكون في مظهرٍ لا يقلُّ إبهارًا عن سيارته!

انزاحَ زجاجُ نافذتها لأسفل قليلًا لتبرزَ منه يدٌ ينعكس من الساعةِ الذهبيةِ التي تتوسطها بريقٌ يخطفُ الأبصارَ... صورةٌ ليس فيها مراءٌ للثراءِ الفاحشِ... هو الباب المعتمد الذي تنفذُ منه الثقةُ والاحترامُ بغير استئذان إلى القلوبِ، والعقولِ!

أشاحَ بيده تلك إلى البائعِ الذي كان واقفًا يشيحُ هو الآخر بيديه الممسكة بمنشَّتِه الهائشةِ الذبابَ عن بضاعتِه المعروضةِ من الفاكهة متعددِّةِ الألوانِ، والأشكالِ، والأحجامِ... رفسَ البائعُ صبيًّا كان يلهو على الأرض أمامه بقدمه فانتفضَ واقفًا، وقد أخذته هيبةُ المشهد كما أخذتْ بمجامعِ قلبِ الأبِ البائعِ الكهلِ...

وإزاء نظرات الأب الحازمة وتصرفه المفاجئ كان الصبيُّ في لحظاتٍ في موجهة صاحب السيارة الذي لم يبدُ له منه سوى وجهه وذراعه الممتدة

بورقة مالية كبيرة، فالتقطها الصبيُّ على عجلٍ، وأشار على الفور لوالده بعدد الأقفاص التي يريدها الزبون مستعينًا بما جهرتْ به حنجرتُه الصغيرةُ بالنوعِ، والصنفِ، والكميةِ...

هرولَ البائعُ إليه بحملٍ ناءَ به فأقبل عليه الصبيُّ يعاونه حتى تمكَّنا بصعوبةٍ من تسويتها في حقيبة السيارة الخلفية التي فتحها صاحب السيارة أوتوماتيكيًّا دون أن ينزلَ منها...

كان الرجلُ على عجلةٍ من أمره، فأمهلهما بعض الوقت حتى يستكمل جولتَه الشرائيةَ، ثم يعود إليهما ليستردَّ باقي المبلغ الذي اشترى في مقابله بضاعتهما...

مرَّرَ الصبيُّ يدَهُ على صدرِه مطمئنًا على الورقة المالية الكبيرة التي دسَّ بها في جيب الصديري الذي يقع أسفل جلبابه، تبادل مع أبيه على إثرها نظرات مفهومة، في حين اختفت السيارة وسط الزحام...

أسرع البائع وابنه يحملان ما تسنَّى لهما جمعه من بضاعةٍ وأقفاصٍ على العربة الخشبية، وانطلقا بها يجرَّانها بسرعةٍ مكتفين برزقهم الذي انتزعاه من رجلٍ ثريٍّ لن يعجزه فقد ورقة مالية لديه منها الكثير!

توقَّعَ البائعان مطاردةً مثيرةً، وتداعت في ذهنيهما الاحتمالات المفزعة... رجلٌ غنيٌّ سيقلبُ السوقَ رأسًا على عقبٍ... سينقِّبُ عنهما في

كلِّ موضعٍ حتى يحضرهما مكبلين في الأغلال... لا شك أنَّ معارفَه كثيرٌ، وصلاتِه واسعةٌ... سيكثِّفُ الجميعُ جهودَهُم في سبيلِ إرضائِه والانتقامِ ممن خدعه!

على الرغم من ذلك كلِّه لم يتردَّد الرجلُ للحظةٍ فيما عزمَ عليه، ولم يكن الصبيُّ بأقلِّ حرصًا منه على الغنيمة...

وبعد جهدٍ، وتعبٍ، ومطاردةٍ من طرفٍ واحدٍ صار الرجلُ وابنُه في مأمنٍ... انفرجتْ أساريرُ البائعِ وهو يودِّعُ معاناته في مشوارِ رزقِه اليوميِّ بما يفوقُ ثمنَ بضاعتِه كلِّها...

انقبضتْ كفُّه وانبسطتْ في حركاتٍ متتابعة وهو يسدِّدُ نظراته إلى الابنِ ليعطيه الورقةَ الماليةَ التي دارت بسببها تلك الوقعة...

أسرعَ الابنُ لينفضَ عن عقله مخاوفه فما عساه أن يفعل إن سقطت الورقة المالية من جيبه أثناء فرارِهما، فتحسَّس موضعها من ثيابه واطمأن لها... لم يفلح الصبيُّ في بثِّ تلك الطمأنينة إلى الأبِ، وقد غابت بشؤمِ فعلتِه ثقتُه في كلِّ شيءٍ... تباطأَ الصبيُّ بعض الشيء فألهبه الكهلُ بنظرةٍ ناريَّةٍ... فانصاعَ إلى الأمرِ متثاقلًا، وكأنَّما يريدُ أن يحظى بأكبرِ قدرٍ من صحبتها...

أخرجها من جيبه ليضعها في كفِّ الكهلِ المتلهِّفِ العجولِ... تلفَّتَ البائعُ يمنةً ويسرةً، فلم يجد غيرَه وولدَه فاطمأنَ وسكنَ... أمسكَ بالورقة المالية... نشرها بين أصابع يديه... رفعها أمامه فيما بين عينيه وصفحة السماء المضيئة... لم يرتح للونها الباهت... شدَّ الورقةَ وأرخاها بين أصابعه المعروقة محدثةً صوتًا كالقرقعةِ الخفيفةِ... تلمَّسَ خامتَها التي بدت خفيفةً غير مشدودةٍ... تصاعدَ لديه الإحساسُ بالقلق...

بدا على وجهِه في عيني الصبيِّ ملامحَ الانزعاجِ... كذَّب الشيخُ المسنُّ حواسَه التي ربَّما تكون قد خانته، وقد تذكَّر مظاهرَ الثراءِ الواضحةَ على المشترى، والتعبَ الذي أخذَ منه ومن ولدِه من جراءِ المطاردة... لكن مخاوفَه تردَّدت بعنفٍ في صدره تردُّدَ أنفاسِه اللاهثةِ... عزمَ البائعُ على إنهاء حيرتِه فأسرعَ إلى أحدِ جيرانِه الباعةِ فعرضها عليه...

لم تكن صدمةُ السائل بأقلِّ من صدمةِ المسئول الذي ناله من المشتري المخادع مثل ما نال صاحبه... لم يكترث البائعُ الثاني بالورقة المالية فألقاها للبائع الأول وأكبَّ على كيسٍ من القماش كان يعلِّقه في رقبته فأخرج ما فيه من عملاتٍ كثيرةٍ حتى استقرتْ في يدِه ورقةٌ ماليةٌ مشابهةٌ للتي عُرضت عليه... صرخَ صرخةً ملتاعةً مكتومةً:

- ورقة مزوَّرة! يا دي المصيبة!

لم تكن خسارةُ البائعِ الأول وهي بضاعته التي أعطاها للمشتري بغير مقابلٍ بأقلِّ من خسارة البائع الثاني الذي لعب معه المزوِّرُ نفس اللعبة مستغلًا الطمع والرغبة...

أسرعَ الرجلان إلى الموضعِ الأول يبحثان عن النصَّاب الذي تبخَّر من المكان كالدخان، وقطعًا لن يعود إليه!

وقفَ البائعُ من جديد ينادي على بضاعته، وهو يتميَّزُ غيظًا، بينما كانت تتأرجحُ في عقل الصبي الأفكارُ بين نشوة المغامرة التي لم يعقل ما أسفرت عنها من نتيجةٍ، وبين الخوف الذي سيطر عليه من مطاردة صاحب السيارة، لكنَّ ثباتَ الأبِ في مكانه واستعراضه الموضعَ جيئةً وذهابًا بثَّهُ ثقةً وإحساسًا بالنصر... ولا يزالُ الأبُ يفتِّشُ بعينيه عنه، ولا يزالُ الصبيُّ يتطلَّعُ من جديد إلى صيدٍ مثل هذا الصيد!

*****

ونِعْمَ التربية!

تعالت أصواتُ الضجيج تميِّزُ مشاجرةً عنيفة لا تخطؤها أذن، حتى إنَّها غطَّت على ضوضاء الحارة التي لا تنقطع ليل نهار.. انفتحت النوافذُ، وأطلت الرءوس، وتطلَّعت الأعين ترصد أطراف تلك المشاجرة...

لم تتعرف (أم محروس) على المشاجرة من بدايتها ولا على دوافعها وأسبابها... لم تدرِ شيئًا عنها؛ فقد غطَّى صوت "التليفزيون" المرتفع بأحداث حلقة من المسلسل التليفزيوني الذي كانت تتابعه بشغف، حتى طرق الباب طارق... وبضجرٍ بالغٍ نادت أبناءها المنتشرين بأرجاء الشقة ليفتحَ واحدٌ منهم الباب، وهي تصبُّ لعناتها على أهل البيت المتكاسلين، وعلى ذلك المزعج اللحوح... وما إن انفتح الباب حتى قذف الطارق الغريب بكلماتٍ اختلطت بأنفاسه اللاهثة داخل جدران الشقة كالقنبلة:

- الحقي! الحقي يا خالتي (أم محروس)! (كَبَاكَة) بيتخانق في الشارع!

وكان (محمود) أو كما يسمونه (كَبَاكَة) آخر العنقود... الحبيب الغالي... فخرجت المرأةُ ثائرة الشعر بملابس البيت حافية القدمين.. انطلقت متحفِّزة كالنمرة... متأهبة لتأكل كبد من ضرب ابنها...

وفي لحظات كانت في وسط المشاجرة تنتشل ابنها من بينها... كانت المشاجرة بين الولد (كَبَاكَة) وبين صبيٍّ في مثل سنه على جنيهات قليلة ادَّعى كلٌّ منهما أنَّها مصروف يده... وكانت الغلبة لابنها الذي لم يكتفِ بانتزاع المبلغ من الضحية، بل وبطح خصمه، ورشق والده، "وكل اللي يتشَدِّد له" بالحجارة وبقذائف من الألفاظ البذيئة...

وما إن اشتكى والد الضحية إلى (أم محروس) حتى انفجرت فيه كالمدفع:

- راجل كبير وتعمل عقلك بعقل عيِّل صغير؟!
- أنا برضه؟! ده ضربني وشتمني، وعَوَّر الواد، وأخد منه مصروفه!
- لا ابنك اللي ضربه... أنا ابني ما يكدبش!

وبعد وصلة من "الرَّدْح" تدخَّلَ أولاد الحلال لفضِّ المشاجرة وتوابعها...

- خلاص يا (أم محروس)! كفاية كده! اطلعي بقى!

فانفجرت فيمن كان حولها:

- هو إيه ده اللي خلاص! لازم أعرَّفهم مقامهم كويس! انتَ مالك يا راجل يا...!

بعد فترةٍ يبدو أنَّها تعبت فقرَّرت أن تنهي الجولة سريعًا مكتفيةً بما أحرزته من انتصارٍ فانسحبت من الميدان تتلفَّح بلسانٍ يحميها وتضرب به هنا وهناك، تحمل ابنها المنتصر... صعدت درجات السلم وابنها يتبعها حتى دخلت الشقة عبر بابها الذي لم يزل مفتوحًا، وأغلقته خلفها في قوةٍ بعد أن جذبت ابنها من ذراعه إلى الداخل بعنف... وصاحت في وجهه:

- ادخل يا واجع قلبي! كل يوم تعمل لي خناقة... انتَ إيه ما بتتعبش؟! منك لله! دايمًا مِبَهْدِلْنِي وراك في كل حتَّة!

زمجر الولد في غضب قائلًا بلهجته المتبجِّحة:

- يعني أسيب العيال يكلوني؟!

وبعد أن هدأت الأم وأدركت بقية من المسلسل نادت عليه، وقد غاب بين دهاليز الشقة، فجاءها متثاقلًا:

- إيه؟! فيه إيه؟! بتناديلي ليه؟! عايزة إيه؟!

- فين الفلوس اللي خدتها من الواد؟!

- دي فلوسي! هو انتِ ادتيني حاجة؟!

- هاتهم! هاتهم أحوشهم لك!

- لا يا ستي... هتخديهم ومش هتجبيهم!

- بقولك هاتهم أحوشهم لك!

حاول الابنُ أن يتوِّه الأمَّ لكنَّها قطعت عليه كلَّ طريقٍ حتى سلبته إيَّاهم... وقالت:

- جدع يا واد... اللي يضربك اضربه... اعدمه العافية... خُذْ حقَّك بدراعك! بقولك إيه! خد الجنيه ده جيب لنا بيه مسحوق غسيل من عمك (إمام) البقال...

أخذ (كَبَاكَة) منها الجنيه وانطلق يعبر بوابة منزلهم قفزًا... التقى بأولاد الحارة يلعبون البِلي... أغـروه باللعب معهم... نسي نفسه، ومرَّ الوقت، وخسر الجنيه في مراهنات اللعب...

وقفت الأمُّ في الشرفة تنادي عليه وقد جُنَّ جنونُها تسبُّه بأقبح الألفاظ... تلوِّحُ له بالعقاب...

أبدى (كَبَاكَة) تأففًا شديدًا وهو يجيبها:

- يووووه.. حاضر! طالع...

تضاحك أصحابه وأشبعوه سخرية:

- اطلع! استلقَّى وعدك!

- ولا يهمَّني... هتعملِّي إيه يعني؟!

وطبعًا بعد ما "اترَّن العلقة السخنة" التي لم تتعبه بقدر ما أتعبت يد الأمِّ وهدَّت حيلها... أفلت من يديها، وردَّ سبابها كلمةً بكلمةٍ بتبجحٍ...

أخذت الأمُّ كلام ابنها بتحدٍّ، وعزمت على ضربه على قلة أدبه، وبعد أن همت بالقيام إليه تراجعت... نسيت جميع ما قال لتدرك ما تبقَّى من المسلسل...

*****

غش جماعي!

اقتربت المذيعةُ الشابةُ في حذرٍ من ذلك الجمع الغفير من الناس يتبعُها شابٌّ ضئيلٌ أضجعَ على كتفِه النحيلِ كاميرا الفيديو التي صارت وكأنَّها جزءٌ من جسده، وقد بذلَ طاقتَه في حمايتها والحفاظ عليها.. ابتلعت جموعُ الناسِ الشابةَ المذعورةَ التي وجدت نفسَها فجأةً في بؤرةِ الحدثِ.. كان عليها أن تتعاملَ بسرعةٍ بحكمِ عملِها وتلتقطُ الخيطَ الأولَ في الحوار، بعد أن تتخذَ الكادر المناسب أمام عدسة الكاميرا مع الذين تحاورهم...

كانت المذيعةُ اللامعةُ منذُ أن استقلَّت السيارةَ التي تحملُ رمزَ القناةِ الفضائيةِ الشهيرةِ - بصحبةِ طاقمِ التصويرِ والإخراجِ - إلى أن وطأت قدماها موقعَ التصوير تعلمُ السببَ الذي أتت من أجله... لم يكن غريبًا في استنتاجه أو توقُّعه، كما لم يكن ليخفى على الملايين الذين تجاوزوا المائة ويشكِّلون قوام هذه البلد... كان أولُ أيام امتحانات الثانوية العامة، وكان موضعُ التصوير أمام بوابةِ المدرسةِ العريقةِ التي تضمُّ عددًا كبيرًا من اللجان داخلها...

كان الأمرُ على ما فيه من أحداثٍ يبدو عاديًّا مألوفًا، على الرغم مما يحمله جوُّ الامتحانات من شحناتِ توترٍ، وتباين في المشاعر بين الضحك والبكاء، والفرحة والحزن، وكيف لا؟ وهو الموضع الذي يُختزل فيه جهد عامٍ كاملٍ، وعنق الزجاجة الضيق الذي تخرج منه إلى غايتك، وتبدأ مشوارك العملي في الحياة وكفاحك، فيفوز من يفوز ويخسر من يخسر...

لم يغِب عن استنتاجها من الأسبابِ على كثرتها ما يبرر مثل هذا التجمهر، وقد قامت خلال سنوات عملها القليلة بتغطية مثل تلك الأحداث، ولم تكن ببعيد عنها ذكرياتُ أيام دراستها وما شقَّ عليها مما لاقته من موادِ الدراسةِ التي تتأرجحُ الاختباراتُ فيها بين السهولة والتعقيد... إنَّه إحساسٌ مرعبٌ بالمسئولية تجاه نفسِكَ وأسرتِكَ... موقفٌ يتحدَّدُ معه مستقبلُكَ، وتتوقفُ عليه حياتُكَ... يُضَافُ إلى ذلك ما زادَ مؤخرًا فيما اعتادت عليه ميادينُنا من ثورات، وتجمعات، ووقفات احتجاجية...

لم تجد الحيرةُ إلى عقلها مسلكًا، وقد توقَّعت مُسبقًا ما سيجري على الألسنةِ من حواراتٍ، لكن هذه المرَّة بدا الوضع مختلفًا في أولِ مشهدٍ جمعها بهؤلاء خلف الكاميرا!

لم تستوعب الفتاةُ من الأقوال الثائرة ذات المعاني المشوَّشة والأفكار غير المرتَّبة سببًا للتجمع واضحًا، ولا مطلبًا محددًا...

التقطتها أمٌّ مفعمةٌ بالأسى تبكي لبكاء ابنتها، ويتمزَّق قلبها من أجلها... كانت الأمُّ وابنتها كغريقتين تعلقتا بقشَّة...

التقطتْ المذيعةُ من كلامِ الشاكيةِ وأمِّها ضررًا جسيمًا لحق بهما، وظلمًا فاحشًا سبَّب الضررَ لهما إزاء حالةٍ من الغشِّ الجماعيِّ أو الإكراه على الغشِّ... لم تستبين على وجه التحديد ماذا أرادتا!

والتقطتْ الأمُّ وابنتها من كلامِ المذيعةِ عبارةً... "لا للغشِّ!"... كانت كفيلة بأن أشعلت ثائرتهما كمن ألقي بالزيتِ على النارِ...

وانهمر وابلٌ من السبابِ واللعنات على فلان المراقب وعلّان الملاحظ الذي لم يرحم توسلات الزهور والزهرات المتفتحات داخل اللجان ومنعهم الغشَّ، كما لو كان حجبَ عنهم حقًّا لا بديل للحياة بدونه!

- إزاي ما يساعدش ولادنا ولا حتى يسيبهم علشان ينجحوا! إيه هم ماعندهمش ولاد! ده كمان كان عايز يعمل لهم محضر غش!

لاحقت الفتاة أمها في الحديث، فسددت كلامها كالقذيفة المدوية:

- إشمعنا صاحبتي في اللجنة التانية تاخد الامتحان كله وأنا لأه!

أكَّدت كثيرات من الأمهات والآباء على هذا الكلام، وزادت عليه إحداهما بحرقةٍ:

- ده إنسان ماعندهوش رحمة! هو معندوش ولاد؟! كده يضيَّع مستقبلهم... وديني لأوريه!

وبالطبع تلقَّت المذيعةُ حملةً من الاتهامِ والتحاملِ بسببِ كلماتها التي أثارت استفزازهم، ونالت ما نالت من اللوم والتبكيت، فلزمتْ الصمتَ...

اندلعتْ شرارةُ الثورة وامتدت ألسنتها المتوهجة في عنفٍ فأحاط المتظاهرون بالمدرسةِ وتدافعوا على الأبوابِ يهدِّون ويتوعَّدون كلَّ من تسوِّلُ له نفسُه حرمانهم من حقِّهم السليب...

خرجَ عددٌ من الأشخاص من المدرسة وقد ارتسمَت على وجوههم ملامحُ الذعر والارتباك، يحوطهم أفرادٌ من رجال الشرطة، وقد استماتوا في فتح الطريق أمامهم وسط موجة عارمة من السباب والبذاءات...

لم تجدْ المذيعةُ المصدومةُ نفعًا من وراء هذا الحوار، وقد سبقَها إلى السيارةِ المصوِّرُ الذي نأى بكاميرته عن هذا التدافع وهي عهدته الثمينة، فخلَّصتْ نفسَها من هذا المأزق بصعوبةٍ بعد أن انتقلتْ رحى الصراع إليها حينما أفلتَ من قبضتهم المتسبِّبون في المشكلة...

جلستْ المذيعةُ داخل السيارة تتنفسُ الصعداء بعد أن نجتْ بأعجوبةٍ من تلك المعركة... سألتْ المخرجَ في حيرةٍ عن الحلقة، كيف ستُذاعُ وقد أخذتْ منحًى مختلفًا عمَّا أعدَّته لها... أهي ثورةٌ على الغشِّ لمنعه، أم المطالبة به؟!

طمأنها المخرجُ الخبيرُ المتمرِّسُ... ستُذاع الحلقةُ كما نريدُ نحن لا كما يريدون هم؛ فالمونتاج سيصلحُ الأمرَ وسيخرج بالحلقة كما أُعدَّ لها تمامًا...

انطلقتْ السيارةُ بهم، وقد عزموا ألَّا يعودوا، وعزمَ الجمعُ الثائرُ على الانتقامِ من العاملين باللجنة في الغدِّ إن كرَّروا ما فعلوه ومنعوا فلذات أكبادهم من تحقيق رغباتهم...

*****

المال الحلال مايضعش!

كلُّنا معشر الموظفين ننتظر أول الشهر بفارغ الصبر... نشتاق إليه اشتياق صائم شهر رمضان لإفطارِ يوم العيد... ننسى شقاء شهرٍ كاملٍ من العمل فقط حين نقف أمام الصرَّاف...

كان (عطوة) ينتظر مثلنا ذلك اليوم، ولكن على صورة مختلفة... صورة الذئب الجائع الذي يسيل لعابه على شدقيه اشتياقًا إلى الصيد!

كلانا نشتـاق! ثم يأتي الفرج من بعد التعب... فكلانا يتعب! (لكن تعبًا عن تعبٍ يفرق)... فنحن نتعب في العمل طوال الشهر، أما هو فتعبه من نوعٍ مختلف... تعبٌ أجره وقتي غير مؤجل... تعبٌ لا يخلو من المخاطرة... يحمل مع كلِّ قرشٍ نقمةً، وحسرةً، وغضبَ المخلوق والخالق!

كان (عطوة) أكبر نشال في المنطقة... وكانت منطقة نفوذه تغطي مساحة ليست بالقليلة... اكتسب صيتًا وشهرةً على مدار سنوات من العمل! وحفر لنفسه اسمًا لامعًا في عالم الجريمة... كان لا يسلم من أذاه واحدٌ من أبناء حيِّهِ مهما بلغ حرصه... فحيله كثيرة وأساليبه مبتكرة... كان يُعَدُّ مدرسة في مجاله... استطاع (عطوة) مع الوقت أن يوسع نشاطه ليشمل جميع بقاع الحيِّ، وكافة المواصلات مستخدمًا نماذجَ مختلفة من صبيانه،

وحيلًا جهنميةً يوظفهم فيها باقتدار... فتارةً تنشب مشاجرةٌ بين امرأتين، أو بين أمٍّ وابنها، أو بين كبير وصغير... مشاجرة تحمل علامة استفهام وتعجب للمتفرج... يدفعه فضوله إليها ليجيب استفساره عما يحدث... أو شهامة تسوق صاحبها الغِرَّ إلى حيث يُراد به... تجذبه إليها كالدوامة... ويفيق الشخصُ بعد فوات الأوان على مصيبة يطيش لها عقله!

وكان صاحبنا على شقاوته وتمرُّسه حريصًا بارعًا في انتهاز الفرصة، وسرعة الانقضاض، وخفة يده المذهلة... فلم يقع مرة في قبضة شرطي أو حتى مخبر رغم سجله الحافل في عالم النشل...

وكانت تحكمه أخلاق المهنة... فكبير الكار يُحتَرم في منطقته فلا يعدو أحدٌ على واحدٍ فيها إلا بإذنه، ولا يجرؤ أحدٌ على الوشاية بغيره حتى وإن كان خصمه اللدود...

كان (عطوة) ينظر إلى ضحاياه فيتحسر على نفسه ويرثى لحاله فهو الظالم المظلوم... وإذا كان يجور عليهم ويؤذيهم فإنَّما يؤذيه شعورٌ أكبر بالنقص والدونية... فهو لم يجد من اهتم به أو أنفق عليه ليكون محترمًا مثلهم، وإنَّما وجد نفسه منذ نعومة أظفاره في الشارع وحيدًا منبوذًا لا حيلة له فيها إلا السرقة... بدأ مشواره بسرقة احتياجاتٍ أساسية كالطعام والملبس، ثم بدأ يوسِّع عمله... لا ينكر أنَّه كان مدفوعًا بدافع حقده على

مجتمعٍ ظلمه... لماذا هم أفضل منه؟! لِمَ لهم وجاهتهم في المجتمع وتبجيلهم، بينما هو لصٌّ يستتر عن أعين الناس؟!

والإنسانُ مهما كان مدفوعًا للشرَّ فهو مخلوق بمزيج متنوع من الأحاسيس... لم يكن يخلو حاله من بعض نوباتٍ صحا فيها ضميره حين يرى رجلًا مسكينًا أو امرأةً بائسةً ممن يبكون ويولولون لضياع تحويشة العمر، أو "شقى" شهر من العمل ينتظر جنيهات يتقاضاها يسدُّ بها أفواهًا جائعة...

كم عزم على أن تكون كلُّ سرقةٍ هي السرقة الأخيرة التي يتوب بعدها، لكنَّ الحرام كماء البحر كلما شربت منه عطشت!

ظلَّ (عطوة) يتأرجح رزقه بين أيامِ كسادٍ، وأيامِ رواجٍ... كان يعرف بحساباته التي لا تخطئ موعد تقاضي الموظفين رواتبهم...

وأثناء وردية عملٍ في الترام قام (عطوة) برصد ضحيةٍ جديدةٍ بدا له من هيئته أنه ذو مكانةٍ... وكان ذلك كفيلًا باستعظام ما بجيوبه، فقد كان (عطوة) خبيرًا في تقدير ما يحمله الشخص من مظهره الخارجي وثيابه...

اقترب منه ولم تمضِ لحظات حتى صارت حافظته بين يديه ليدسها بسرعة لا تُلحظ في طيات ثيابه، ونزل مسرعًا بينما لم يزل الترام يتحرك... وما كاد يخطو خطوتين على الأرض حتى اصطدم برجل في خريف العمر

يتعثر في هيئته البسيطة المتواضعة، كان يعبر الطريق غير منتبهٍ فقد كان على وجهه أركامٌ من الهموم... سقط الرجل على الأرض من شدة الصدمة... تناثرت بعض حاجياته من حوله من بينها حافظة نقوده...

لا يعلم (عطوة) ما الذي دفعه ليجمع له ما سقط منه؟! ولا كيف سلَّمه الحافظة؟! ولو أراد أن ينشلها لما لحظه مخلوقٌ من فرط سرعته وخفَّة يده، فما بالكَ بالطريق وهو خالٍ من الناس؟!

ربما رثا لحالة الرجل المتواضعة! ربما أشفق عليه من شدة الصدمة! ربما أيقظت تلك الحادثة ولو للحظات ضميره وحرَّكت شهامته! لا يدري لماذا؟!

ربما ذاق لأول مرةٍ لذَّةَ دعوةٍ طيبةٍ مسَّت قلبه، وأشعرته بأمانته المفقودة حين ردَّ له حافظة نقوده:

- الله يكرمك يا بني! ربنا لا يرميك في ضيقة! ربنا يحميك من ولاد الحرام!

نزلت كلمات الرجل على رأسه كالدشِّ البارد... أحيت في نفسه الضمير... ثم ما لبث أن وسَّده التراب... فما إن انطلق الرجل في طريقه حتى انزوى (عطوة) في جنبٍ ليحصي غنيمته...

كانت المفاجأة مشمولة بطعنة في كبريائه! لم يعثر على الحافظة التي كانت حصيلةَ جهدِ يومٍ كاملٍ... كيف وهو يسرق الكحل من العين أن يُنشل بهذه السذاجة؟! أيكون جزاؤه بعد أن أعاد للرجل حافظته أن يسرقه؟!

استشاط غضبًا... تلفَّت يمينًا ويسارًا لعله يجد السارق المخادع! لم يطل به البحث... وجده على مدى بصره يعبر الطريق إلى الجانب الآخر... جزَّ على أسنانه وتوعَّد أن يتبعه ولو ذهب وراءه إلى آخر الدنيا... لابد وأن يستعيد حافظته منه ويستعيد معها كرامته، وإلَّا سيصبح أضحوكة بين أبناء كاره...

انطلق (عطوة) في إثره على الفور... فكَّر في طريقة منطقية ابتكرها للسرقة... تعرَّض له في طريقه واصطدم به بطريقة تبدو غير مقصودة... ويبدو أن الرجل من كثرة الصدمات لم يدقِّق في وجه من صدمه فلم يعرفه... وفي لحظة كانت الحافظة في يد (عطوة)... دسَّها بسرعة في طيات ثيابه... تعجَّب من سذاجة الرجل وخيبته!

عاد أدراجه من حيث أتى... سمع نداءً يأتيه من الخلف... سقط قلبه في رجليه... ظنَّ أنَّه شرطيٌّ تابع القصة من أولها... لكنَّه تماسك سريعًا... التفت إلى الصوت الذي لا يزال يتبعه في إصرارٍ... اطمأن فلم تكن هيئته هيئة الشرطة ورجالها... وأجاب صاحب النداء:

- نعم! حضرتك تقصدني أنا؟!
- أيوه يا سيد... المحفظة دي وقعت منك!

مدَّ (عطوة) يده ليجد حافظة النقود التي كان يظنُّها مسروقة...

خاطب نفسه في فرحة:

- يا سلاااااام... الواحد النهاردة مُرزَق والرزق بينادي صاحبه!

تذكَّر الرجل الذي اصطدم به وسرقه... حزن قليلًا لأنَّه ضيع الحسنة الوحيدة التي عملها في حياته والدعوة الصالحة التي تلقَّاها للمرة الأولى منه... ثم تذكَّر حافظة النقود الأولى التي كان بالطبع لها صاحب هي الأخرى... واسى نفسه قائلًا:

- زيادة الخير خيرين... محدش يقول للفلوس لأ...

دسَّ حافظة النقود في جيبه وتحسَّس الأخرى في موضعٍ آخر... واكتفى بما سلبه في يومه، وعاد إلى بيته مسرعًا... دخل (عطوة) حجرته التي يقيم بها... وضع حافظتي النقود على طاولة صغيرة أمامه... وفي لحظة من لحظات الفخر التي يسجلها له تاريخ الجريمة في سجل بطولاته جلس يحصر غنيمته... وضع المحفظتين أمامه... وازن بينهما بأيهما يبدأ... كانا متشابهتين نوعًا في اللون والحجم... فتح إحداهما كانت بها بعض الأوراق المالية لا تزيد فئة أكبرها عن عشرة جنيهات... صبَّ اللعنات على صاحبها

ذلك المفلس... لابد أنه موظف حكومة! اجتهد يبحث في جيوبها... تفحص محتوياتها بدقَّة... إيصال كهرباء... إيصال سداد رسم مدرسة حكومية... تذكرتي قطار... وحين طالع بطاقة إثبات الشخصية تأكَّد ظنُّه أن تلك الحافظة لموظف...

- أكيد هو الراجل اللي خبطته وأنا نازل من المترو وافتكرته سرقني... شكله كحيان زي محفظته...

أسرع إلى الحافظة الأخرى... فتحها بسرعة ربما يعوِّض خيبة أمله في الأولى فالرجل الذي سرقها منه في الترام يبدو عليه الاحترام... لكنه صُدِمَ من جديد... لم تكن تحوي مبلغًا كبيرًا... اجتهد يبحث في جوفها لعله يخرج بشيءٍ ذي بال...

وجد بطاقة إثبات الشخصية لصاحبها... تفقَّد أحد جيوبها... وجد عدة كروت تحمل أسماء شخصيات مرموقة بالمجتمع، أعمالهم، وعناوينهم، وأرقام تليفونات خاصة بهم...

فتَّش جيدًا... وجد ورقة مطوية... أسرع ففتحها... إيصال أمانة... ابتلع ريقه وهو يعد الأصفار... واحد... اثنين... ثلاثة أصفار... أربعة، بل خمسة على يمين الرقم (٥)...

زاغ بصره وهو يحسب عدد الأصفار...

- واحد... اثنين... ثلاثة... أربعة... خمسة...

عدَّ مرة أخرى من الشمال إلى اليمين...

- نفس العدد... خمسة أصفار! خمسمائة ألف! نصف مليون جنيه!

- يا سلاااااااااام! هي دي خبطة العمر بصحيح! لازم أستغل الظروف... مش هفوِّت فرصة زي دي تعدِّي... الفرصة ما تجيش غير مرة واحدة في العمر!

قرَّب الورقة من المصباح المعلق من سقف الحجرة ليتأكد من المبلغ ويتعرَّف على اسم ضحيته...

- الوصل ده كنز... هساوم عليه بمبلغ كبير... هساوم الداين والمديون... دي لعبتي!

كان اسم صاحب الدين واضحًا، وكذلك اسم المدين... تأكَّد أن صاحب الإيصال هو صاحب الحافظة من اسمه المدون في إثبات الشخصية وفي إحدى الكروت... صاحب شركة (....) للمقاولات... عنوانه (....)... تليفون البيت (....)... المحمول (....)... تليفونات الشركات (....)...

فرك يديه متحفزًا وجزَّ على أسنانه كالذئب الذي يتأهب للانقضاض على فريسته، وهو يقول في نفسه:

- آدي واحد...

بحث في الكروت التي استخرجها لتوه من المحفظة حتى تعرَّف على اسم المدين وبياناته... عنوانه... وتليفونه...

- وآدي التاني اللي هبتدي بيه العملية... علا بحروف اسمه مرتين أو ثلاثة وكأنما يحفظه ويستظهره... (أحمد أمين)...

دسَّ المبلغ الذي التقطه من حافظتي النقود في جيبه... خرج من البيت... توجَّه لأقرب محل اتصالات...

اتصل بالمدين... أخبره بالأمر... ساومه في المبلغ الذي سيبيع به إيصال الأمانة له... إنَّه مبلغٌ أقل بكثير مما سيسدده لصاحب الدين...

كانت مفاجأة الرجل كبيرة... عقدت لسانه... لم يَحِرْ جوابًا...

- أستاذ (أمين)... دي فرصتك... والدنيا فرص... لازم تستغلها محدش ليه أمان... إحنا في زمن الصاحب يبيع صاحبه علشان جنيه... ودول نص مليون... وما فيهاش حاجة لما تبص لأخوك الغلبان اللي هيخلصك من دين كبير ممكن تقضي بسببه بقية حياتك في السجن... قدامك يومين ترد عليَّ... ولو ضيَّعت الفرصة هتندم!

أُغلقَ الخط... دارت الدنيا برأس (أمين)... يضرب أخماسًا في أسداسٍ... يفكر في كلام صاحبنا... يزينه الشيطان له... ثم يفيق فيطرد عنه وساوس الشيطان... ويذكر الله وحسابه...

ثم أغلق منافذ الشيطان إلى نفسه وعقَّب قائلًا، يخاطب نفسه بصوتٍ مسموعٍ:

- أنا عندي عيال... عايز أربيهم من حلال... وبعدين أنا ظروفي مش صعبة للدرجة دي وإن شاء الله هسدِّد المبلغ في معاده من مكسب الصفقة اللي أنا داخل فيها...

قرر (عطوة) الاتصال بالدائن لينفذ المساومة فلربما فشلت المساومة مع الأول... وربما تنجح مع الاثنين فيحصد مبلغًا ربما يساوي مبلغ وصل الأمانة كله! وأجرى المكالمة:

- (الإسناوي) بيه؟!

جاءه الردُّ من الطرف الثاني:

- آلو... أنا (الإسناوي)... مين معايا؟!

- فاعل خير...

وتحدَّث بجرأة لصٍّ محترفٍ يعشق المال ويتمسك بالفرصة "بإيده وسنانه"...

لم يكن الأمر مفاجأة للدائن... فقد كان ينتظر تلك المكالمة ويتوقعها منذ أن سُرقت حافظة نقوده...

كان رجلًا محنكًا... ابن سوق... يعرف جيدًا كيف يلاعب ألف واحد من عينة صاحبنا إيَّاه...

أغراه وطمَّعه... أكَّد على أهمية إيصال الأمانة... أقحم نفسه معه في مساومة... اتفقا بعد جهدٍ... حدَّد موعدًا في مكتبه بالشركة التي يمتلكها يوم كذا... الساعة كذا...

أطارت الفرحة عقل (عطوة)... حلم بالمقابلة... لكنَّه كان يتخذ لكلِّ شيءٍ تدابيره... فماذا لو ذهب إليه فأعطاه وصل الأمانة ولم يعطه المال؟!

- هو أنا تلميذ! طبعًا هروح من غير الوصل... وبعدين لسة قدامي الراجل التاني هاخد منه فلوس هو كمان! لازم أحتفظ بالوصل معايا...

جاء يوم المقابلة... دخل (عطوة) الشركة وسأل عن صاحبها (الإسناوي) بك... فدلُّوه على مكتب السكرتارية... أبدوا تجاهه اهتمامًا زائدًا... وأمر (الإسناوي) بك فدخل عليه (عطوة)... عرفه (عطوة) فقد كان لا ينسى أبدًا زبائنه...

كان مكتب رجل الأعمال فخمًا... ديكورات مبهرة... أثاث فاخر... ابتلع (عطوة) ريقه نهمًا وهو يمنِّي نفسه بمبلغٍ كبيرٍ...

تذكر (الإسناوي) بك وجه النشال الذي سرقه في الترام فقد كانت المرة الأولى التي يستقلُّ فيها وسيلة المواصلات تلك، وما ندم على شيءٍ أكثر من ندمه على ذلك...

حيَّاه (عطوة) في وجلٍ، وردَّ (الإسناوي) بك التحية بعدم اهتمام... تحية باهتة لا تنمُّ عن مودةٍ، وما تخفي الصدور أكبر! لم يظهر أيٌّ منهما بالطبع معرفته بالآخر...

بادر (عطوة) بالكلام فقدَّم نفسه أنَّه واسطة خير من طرف شخصٍ لا يريد أن يفصح عن اسمه، أما هو ففاعل خير يقوم بخدمة ولن يجني من وراءها جنيهًا واحدًا...

لم يلتفت (الإسناوي) بك إلى كلامه ولم يعره أيَّ اهتمامٍ متجاهلًا وجوده... تناول سماعة التليفون وأجرى مكالمة تليفونية مقتضبة أخبر صاحبها بسرعة الحضور... أضاء اللمبة الحمراء، ثم خاطب السكرتيرة بلهجة آمرة:

- محدش يدخل علينا إلا (....)! وأسرَّ إلى السكرتيرة باسم استثناه، لم تلتقط أذنا (عطوة) حروفه...

أراد (عطوة) أن يلفت نظر الرجل إليه فتنحنح وسعل بصورة متقطعة مفتعلة...

رمقه الرجل بنظرة حادة ثم انفجر فيه في حدَّة وبصورةٍ مباشرة فجَّة:

- إنت فاكر نفسك هتضحك عليا؟! أنا عارفك من أول لحظة شفتك فيها... وفاكرك كويس... يا حرامي "الترومای"... كنت متأكد إنك هتكلمني وتحاول تبتزني!

امتص (عطوة) الصدمة بمرونة يحسد عليها... كشف عن وجهه القبيح، وببجاحة اللص المتمرس قال:

- على العموم أنا كنت عامل حسابي... مش هتقدر تعملي حاجة... الوصل في مكان أمين... أنا هوريك الحرامي اللي مش عاجبك هيعمل إيه! وهتشوف هعمل بالوصل ده إيه!

طبعًا كان يفكر في صفقته مع المدين بعد أن طارت صفقته مع صاحب الإيصال...

قطع ضجيجهما وقعُ طرقاتٍ على الباب ينذر بضيفٍ يريدُ الدخول، وإذ بالمفاجأة التي ألجمت (عطوة)... عرَّف الضيف نفسه، إنَّه الأستاذ (أحمد أمين)...

ارتبكت حسابات (عطوة)... تلعثمت الكلمات بين شفتيه وهو يواجه نظرات الرجلين النارية المسددة إليه... كشفته... عرَّته... فضحته...

سلَّم الأستاذ (أمين) على (الإسناوي) بك ولم يحيي (عطوة) فقد كانت الأمور على المكشوف...

وجَّه (الإسناوي) بك حديثه إلى (عطوة) في تحدٍّ سافرٍ:

- ما فيش داعي أعرَّفك على الأستاذ! أكيد انت عارفه كويس؟!

تمنَّى (عطوة) لو انشقت الأرض وابتلعته... فقد فشلت خطته... ولم يجنِ مليمًا واحدًا من الصفقة بعد أن أصبح إيصال الأمانة مجرد ورقة...

خاطبه الأستاذ (أمين) مباشرة بلغة محتدة غاضبة:

- مش أنا اللي أقبل الحرام على أولادي... لو قدِّمت لي مال الدنيا كله... مش ممكن آكل أنا وولادي الحرام!

تكلم (الإسناوي) بك بلهجة واثقة وهو ينظر مباشرةً في عيني (عطوة):

- إنت فاكر الناس كلها حرامية زيك؟! الوصل اللي معاك بلِّه واشرب ميته! ما لوش قيمة إحنا بنتعامل بالكلمة... والشرف هو العقد اللي بيننا... يا ريت تكون اتعلمت النهارده درس ينفعك... دوَّر على عمل شريف أحسن... المال الحرام ما بينفعش والحلال ما فيش أحسن منه...

كان (عطوة) يعلم جيدًا أنَّه في مكتب رجل الأعمال وبإشارة واحدة من إصبعه الصغير لا يستطيع الخروج على قدميه... ومن الممكن أن يسلِّمه للشرطة بمكالمة تليفونية...

لم يكن أمامه إلا الحيلة... راوغ كالثعلب... فأطرق برأسه معتذرًا... تصنَّع التوبة... تظاهر بالرغبة في البحث عن عملٍ شريف... أظهر التحمس للأمر أكثر من حماستهما... خرج من المكتب تودعه نظرات الرجلين الشفيقة ودعوات التوفيق والفرح بتوبته... ربما عاش (عطوة) للحظةٍ إحساس التوبة ووهم التمتع بلذة العيش الحلال! ربما تسللت إليه الفكرة ولو كخاطرة! ربما اختلطت بالدعوة الفائتة التي تلاقها من الرجل الذي أعطاه الحافظة ثم سلبها منه!

لكنَّه خنق الفكرة في مهدها وأسرع ليقول:

- طبعًا دول ناس شبعانين... جيوبهم عمرانة... بيتعاملوا بالألفات... مش حاسين بالغلابة اللي زيي... يفرق إيه مع رجل أعمال زي ده لو دفع ألفين ولا تلاتة لغلبان زيي... على العموم هدوَّر في المحفظة تاني يمكن ألاقي شيك ولَّا وصل أمانة نسلِّك بيه قرشين!

*****

كلام في السياسة!

ذهبت الأمُّ وابنها الشاب يصحبان الأخت، وزوجة الأخ الأكبر إلى بيت العروس التي رشَّحها له أحدُ أصدقائه... كانت قريبة ذلك الصديق من بعيد... لم يلتقِ الشاب بالفتاة من قبل سوى مرةٍ واحدةٍ... لم يكن قد تحقَّق له الاقتناع الكامل بها، ولم يكن تحقَّق اقتناعها الكامل به!

لم يكن يجمع بينهما سوى وحدةِ الهدف... وكان الهدف هو محاولة اللحاق بقطار الزواج الذي قد يتأخر، وقد يأتي أو لا يأتي... لا يزال أمام القطار محطات في مواعيد لم يتخطها بعد، لكنَّهما كانا على عجلة من أمرهما... ربما كان يدفعهما الخوف من سرعة مرور الأيام، والشهور، والسنين... وإنَّها لأبرز ملامح هذا العصر الذي لم يعد فيه للوقتِ بركة!

لم يزل الشابُّ في مطلع الثلاثينات، وكانت الفتاة في أواخر العشرينات... لا يزال المستقبلُ فاتحًا ذراعيه أمامهما، لكن كلاهما كان يُمنِّي نفسه أن يجدَ ما يغلق به باب مخاوفه من انفضاض سوق الزواج، والناس من حولهم بين متعجِّل ومسوِّف...

كانت الأمُّ تخشى على ابنها من الانزلاق في حبائل شَرَكٍ ليس له منه فكاك... خطوبة... شَبْكَة... هدايا... مواسم... في حين لا يزال أمامه في تجهيز شقته الكثير... ولا شك أن الخطوبة الآن ستعوِّقه؛ لأنَّها ستكبِّله بالنفقات... لذا كانت غير مقتنعة بالمهمة التي انطلقت على رأس ذلك الوفد لإنجازها... أمَّا الفتاة وأهلها فكانوا يتمسكون بالفرصة، فالارتباط ولو بدبلتين مؤقتًا يكفُّ ألسنة الأقارب والجيران عن الابنة، ويظهرها في صورة المطلوبة المرغوبة كثيرة الخطَّاب...

تقدَّم الوفدُ فدخلوا البيت من بابه في ظلِّ ترحيب أصحابه، ثم اجتازوا الردهة الخارجية إلى حجرة الضيوف لتستقرَ جلستهم بها... كان الشاب ينتفخ فخرًا بما ملأ عيني أمِّه ومن معها من مظاهر الثراء الواضحة على أثاث البيت... كانت ولا شك ظروفهم المادية جيدة... كان ذلك واضحًا تمامًا للعيان!

تعلَّقتْ نظرات نساء العريس بوجه أمِّ العروس الذي بدا لهم بملامحه الهادئة مريحًا... تبادل الفريقان عباراتِ الترحيب والتحية لفترةٍ ليست بالطويلة تلتها لحظةٍ من الصمت، قطعتها طرقة أو طرقتين على باب الحجرة لتدخل فتاةٌ بيضاءُ ملفوفةُ الجسم معتدلةُ القوام تمسكُ صينية واسعة عليها من أصناف المشروبات ألوانًا... تقدَّمت نحوهم بحذرٍ... قدَّمت

المشروبات للحاضرين تباعًا... غمزت لها أمُّها، ففهمت الفتاة وبدأت بحماتها المنتظرة، ثم ختمت بالشاب الذي كان لا يزال يتابع قسمات وجه أمِّه... أهي تتجه إلى الرضا أم إلى السخـط؟!

جلست الفتاة إلى جانب أمِّه حذرة... بدأت عين الأمِّ الخبيرة تتفحصها من أخمص قدميها حتى منبت شعرها... من حركاتها، وسكناتها، وجميع لفتاتها تتلمَّس مواضع أنوثتها وخصوبة بدنها...

بدت أسارير وجه الأمِّ تنفرج قليلًا قليلًا، وقد تبيَّن الشابُّ ذلك منها فبدأ الارتياحُ يسكن قلبه... لتكن هذه هي تجربته الأخيرة مع الخطوبة... كانت تجربته الأولى مع ابنة عمِّه وقد فُسِخَت الخطبة في ظلِّ تفاقم مشاكل عائلية، ورواسب خصومة على الميراث والأرض... وقد تقدَّم بعدها لكثيرٍ من بيوتات الأسر المحترمة، لكنَّ الأمر لم يكن ليأخذ مساره الطبيعي؛ لأنَّهن جميعًا لم يَكُنَّ على مستوى خطيبته السابقة من التعليم والجمال...

كان الشابُّ يعلم جيدًا كيف تفكر أمُّه، وكان يحفظ كلامها عن ظهر قلب:

- لازم تاخد ست ستها! إن ما كنتش واحدة أحسن منها مالوش لزوم!!

أحسَّ الشابُ أن الأمور تسير هذه المرَّة في صالحه...

لم تزل الفتاة تتسربل بسربال حيائها وقد كست خدَّيها حُمرةُ الخجل، وارتسمت على شفتيها ابتسامة بريئة زادت وجهها إشراقًا...

كانت صاحبة الدار تتحدَّثُ بطلاقة فقد كانت هي الأم والأب معًا بعد وفاة الوالد في السنوات الأولى لطفولة العروس... استرسلت الأمُّ في حديثها عن ابنتها فذكرت الشيء الكثير عن مستواها الدراسي، والعلمي، والوظيفي... أدبها، وأخلاقها، وتربيتها... والفتاة لا تزال صامتة تبتسم... تحرك رأسها لا تنبس ببنت شفة...

أرادت أمُّ الفتى أن تخرجها من ذلك "الصمت الرهيب" فتوجَّهت بحديثها مباشرةً إليها وهي تنظر في عينيها... سألتها... فتلعثمت الفتاة، وارتبكت، وتلجلجت... كانت لديها مع نطق بعض الحروف مشكلات، ولديها زكَّةٌ واضحةٌ في آخر كلِّ كلمةٍ ترتكز على نهايتها فتبدو بطيئة النطق – شُخِّصت حالةً نفسية أكثر من كونها مشكلة عضوية-... أحست الفتاةُ بإحراج شديد حين حصرت الأمُّ كلَّ اهتمامها فيها، وبدت لا تلتفت إلى أحدٍ سواها، وكأنَّها تقيِّم حجم المشكلة التي سيترتب عليه أمرها بالقبول أو الرفض...

وأثناء الحوار الثنائي بين الأمِّ والفتاة حدجت الأمُّ ابنها الشاب بنظرةِ استنكارٍ بدت واضحةً للجميع... قرأتها الفتاةُ وأمُّها بوضوحٍ...

لم يكن أمام الأمِّ - وقد بدا عليها الامتعاض - سوى الكلام في موضوعٍ آخر لتخرج بصنعة لطافة من الإحراج... لم تجد أفضل من الموضوع الذي يشغل الناس، فانبرت في حديثها وكأنَّها نسيت لِمَ جاءت:

- رأيكم إيه في حال البلد؟! إحنا كُنَّا عايشين كويسين لغاية لَمَّا جم حبِّة عيال وعملولنا ثورة! قال ثورة قال! عشنا وشفنا!!

عقَّبت صاحبةُ البيت:

- على رأيك يا ختي.. ما لنا ما كُنَّا عايشين؟! ثورة إيه دي؟!

فاجأتها أمُّ الشاب بكلامها وبحدَّتها:

- عايشين إيه يا ست انتِ؟! هي دي كانت عيشة... إحنا ما كنَّاش لقيين وهمَّ بيهربوا الفلوس برَّة... الناس زهقت وكان لازم الحال يتغير!

تحيَّرت أمُّ الفتاةِ في تلك الأمِّ غريبة الأطوار... لم تعرف كيف ترضيها وقد أنصتت إلى حديثها المطوَّل، وأرادت أن تخرج من الموقف فتداركت الموقف سريعًا وقالت:

- يا دي السياسة اللي تعبت قلبنا! ما تسيبِك من الكلام في السياسة اللي واجعة دماغنا!

ردَّت الأمُّ محتدَّة:

- يعني إيه هو انتِ مش عايشة في البلد دي ولَّا إيه؟! ولَّا دي مش بلادنا ولازم يكون لنا رأي فيها؟!

سكتت صاحبةُ البيت هذه المرَّة ولم تُجِب، في حين نظرت الأمُّ في ساعة يدها وقالت بصورة مفاجئة:

- يااااااااه! إحنا اتأخَّرنا قوي! وأزعجناكم...

وزَّعت نظراتها الآمرةَ على الوفد الذي كانت تتزعمه، ثم همَّت واقفةً فتبعها الجمعُ المصاحب واتجهت إلى الباب قائلةً ومظاهر الفتور واضحةً على لهجتها وبكلماتٍ مقتضبة:

- لازم تردُّوا الزيارة قريب! اتفقنا! سلامو عليكو...

خرج الوفد على عجل... ولا تزال الفتاة جالسة تتذرعُ بالصمت... والجميع واجمون!

*****

العين وحشة!

انقلبتْ قهقهتُها العالية مرارةً، فأسرَّتها في نفسها خفية وابتلعتها، ثم واصلت الزوجةُ الشابةُ ضحكاتها الساخرة على مرأى من الزوج الغافل، الذي انشغل كعادته معها بقراءة الصحيفة اليومية، في حين اكتفت هي بالخبر الصغير الذي التقطته عيناها فأثار سخريتها وأضحكها إلى حدِّ البكاء... كان الخبر على ظاهره يثير الضحك، لكن بواطن الأمور لا يعلمها إلا علَّام الغيوب!

فسَّرت للزوجِ حين جاد عليها ببعض الانتباه سبب ضحكاتها مكتفية بقراءة الخبر الطريف: "امرأةٌ عجوزٌ تعيش في دار مسنين تمنَّت أن ترتدي فستان الزفاف الأبيض، استجابت الدار لرغبتها وحقَّقت أمنيتها فأقامت لها "زفَّة" بالفستان الأبيض كما تمنت، ثم عادت إلى الدار لتستكمل حياتها وهي سعيدة..."...[1]

تذكَّرت الزوجةُ الشابةُ ليلة زفافها بعد أن نحَّت عن مخيلتها الشدَّ العصبيَّ يومها والمشكلات المادية المُكبِّلة... الذكرى الجميلة التي لن

(١) نُشر الخبر بجريدة الأخبار يوم الاثنين الموافق ٢/١/٢٠١٧م.

تنمحي مع الأيام... الذروة التي تسعى لبلوغها كلُّ فتاةٍ إلى جانب رفيق العمر، ثم لا تلبث أن تكتشف أنَّها الذروة التي يعقبها مباشرةً المنحنى الهابط... مشكلات الحياة المادية القاسية التي خنقت فرحتها في مهدها لتسير الحياة بها وبرفيقها مقترنين في قيدٍ واحدٍ بغير فكاكٍ... ازدردت عبارةَ التبرم المعتادَ قولها في مثل تلك الأمور، ولم تبدها:

"خدنا إيه من الجواز غير وجع القلب!"... "كتها نيلة اللي عايزة تتجوز!"... "أنا اللي جبته لنفسي، ما كنت مرتاحة؟!"... وغير ذلك من عبارات التبرم التي ابتلعها الصمت...

تسلَّلت إلى نفس الزوج المنشغل أصداءٌ لهذا الخبر الطريف بمثل ما تسلَّلت إلى نفسها ليسرح بخياله... تذكَّر زيجته التي حارب من أجلها الدنيا كلَّها... سنوات طويلة لم تتح له السعادة سوى في تلك الليلة، ثم أقبلت المتاعب، والهموم، والمنغصات تباعًا فأنسته الفرحة التي حلم بها، ولم يمكِّنه القدرُ بعدها أن يرتاح...

غربت البسمةُ التي أشرقت على شفتيه وهو يتذكَّر تلك الليلة التي مَرَّت بخياله للحظةٍ في خضم البحر المظلم متلاطم الأمواج الذي سقط فيه... مصاريف لا تنتهي... أقساط... ديون... طفلٌ في عالم الغيب لا يملك حيلةً أمام واجباته تجاهه وهو على بعد شهورٍ قليلةٍ منه.. تحسَّر على

جهده، وصحته، ومعاناته الطويلة.. فليبتلع هو الآخر همومه ويبتسم في حين تكتَّم على السخرية في نفسه!

انتهى المشهد الذي جمعهما سويًّا بأن انصرف الزوج إلى المقهى ليلتقي بشِلَّتِه يتندَّرُ بهذا الخبر الفكاهي ويفصح عن مكنون نفسه ليجد من يشاركه حالته، أمَّا الزوجة ففور انصراف الزوج اتصلت بجارتها - التي تشاركها وحدتها مع غياب زوجها هي الأخرى- تدعوها لتحتسي معها قدحًا من القهوة، فبادرت تلبِّي طلبها، واشتركت المرأتان في السخرية تندبان حظهما وتتحسران على الشباب الذي جار عليه الشقاء، والإهمال، ومتاعب الحمل والإنجاب...

استمر حديث المرأتين طويلًا... تحفَّظت الواحدة منهما على الجوانب الإيجابية لحياتها الزوجية لتجهر بما يحيط بها من مشقة... توجَّست كلتاهما من الأخرى خيفة فـ"العين وحشة!"... قالتها كلتاهما في نفسها خفية... وواصلا حديثهما إلى أن عاد الزوج، ففاءت كلٌّ منهما إلى معسكرها!!

*****

كعك العيد

قارب الشهر الكريم على الانتهاء... جاء موسم العبادة سريعًا ثم انفضَّ فربح من ربح وخسر من خسر... لم يتبقَ منه سوى أيامٍ قلائل لعل المقصر يدرك فيها بعض ما فاته من الخير فيفوز!

جلس (عبده) على سجادة الصلاة بعد أداء الفريضة يستروح بعض نسمات الهواء المنبعث من الشباك البحري الصغير المطل على "المنور" المتنفس الوحيد للشقة المخنوقة التي يقيم بها منذ نصف قرن هو وزوجته وأولاده، ومع تتابع هذه النسمات الرطبة تداعب وجهه، تداعت في ذهنه ذكريات مثل هذه الأيام في الماضي البعيد من رمضان... أيام الطفولة... أيام الشباب... بواكير حياته الزوجية...

واليوم خرج على المعاش وقد تقلصت إمكاناته المادية بشكلٍ مفزعٍ... صحيح إنَّ العيال كبروا وعاشوا حياتهم وفتحوا بيوتًا، لكن المصاريف هي هي، بل ربما زادت بعدما صحبه في رحلة حياته المتبقية المرض هو وزوجته مع تقدمهما في السنِّ...

وتمرُّ شهورٌ وتنقضي سنواتٌ ولا تزال (نفيسة) زوجته محافظة على تراث ماضيها الذي توارثته عن أمِّها وأمِّ أمِّها... فلا تحمل لها هذه الأيام من الروحانيات العظيمة سوى "عمايل الكعك" ولوازم العيد من العادات العتيقة البالية! حاول (عبده) التمرد على هذه العادات مرة بعد مرة، لكن سرعان ما يستسلم ويرضى بالأمر الواقع اتقاءً لغضب زوجته التي تستطيع أن تحيل العيد إلى مأتم، وهو رجلٌ مسنٌّ... "عضمة كبيرة"... لم يعد لديه القدرة على تحمل النكد، وربما رأى أن انشغالها في عمل الكعك يخفف عنه ضغط مناكفتها معه فيفرِّغه للعبادة... وبهذه الصورة كانت تسير الأمور عنده نوعًا بلا مشكلات، لكنَّ المشكلة الحقيقية التي يواجهها (عبده) هذا العام أنَّه أول رمضان يمرُّ عليه بعد خروجه على المعاش وقد انقطع راتبه وحلَّ مكانه معاشٌ هزيلٌ لا يتعدَّى ربع ما كان يتقاضاه من مرتبٍ، فكيف الحال الآن؟!

ربما تعرف (نفيسة) هذه الحقيقة فترحمه من مطالبها وتوفر عليه معاناة كل عام؟! وكما يقول المثل: "اللي ما يشوفش من الغربال يبقى أعمى!"...

وبينا (عبده) لا يزال مستمتعًا بهدأة الجوِّ، يخشى أن يكون الهدوء الذي يسبق العاصفة، أو الهدنة التي تسبق الحرب...

فإذ بمخاوفه تتحقق فجأة، لينتبه من أفكاره على صوت زوجته (نفيسة) تناديه:

- عبدوووووو... عبدوووووو!

تشاغل عنها مخاطبًا نفسه:

"يعني هتعوز مني إيه؟! أكيد حاجة ماتستهلش!"

عاودت النداء من جديد وقد التقطت أذناه بعضًا من أطراف حوارها مع نفسها، وقد علا به صوتها:

- عجايب! هو الراجل ده مش سامعني؟! ولَّا عامل مش سامعني؟! هو كل ده بيصلي؟! هو بيصلي التراويح بالنهار كمان؟!

وفي لحظة كانت واقفة على رأسه، وقبل أن يجيبها أو يبرِّر لها تأخره في الردِّ بادرته بالسؤال:

- هو النهاردة كام في الشهر؟!

أجابها بهدوئه المعتاد وقد فهم مغزى سؤالها، لكنه راوغ قائلًا:

- إحنا لسَّة في آخر الشهر والمعاش بقبضه يوم خمسة في الشهر...

قالت بلهجة مستنكرة:

- راجل انتَ! أنا بسأل عن الشهر العربي... إحنا كام رمضان؟!

- إحنا في العشر الأواخر من الشهر الكريم، ربنا يتقبل منَّا ومنكم...

بدا على وجهها الامتعاض وقد استفزها ردُّه فقالت متأففة:

- استغفر الله العظيم... "اللهم طولك يا روح!" إيدك على فلوس الكعك!

- كعك إيه يا ست انتِ؟! إحنا صحتنا ماتسمحش بأكل الحجات دي...

- بقولك إيه... دي عادة ولابد منها... ربنا مايقطعش لنا عادة!

علم (عبده) بما خبره من صفات (نفيسة)، وقوة شخصيتها، وتمسكها برأيها أن لا جدوى من إقناعها بهزال معاشه أو بصحتهما المعتلة، فوفَّر على نفسه التعب وقام بهدوءٍ إلى محفظته ففتحها ووضع بين يديها الورقة "أم مدنة" والحسرة تقتله... قلَّبتها بين يديها ساخرة، وقالت محتدة:

- ماتنفعش... الدنيا غلا... ودي ماتكفيش... هات كمان واحدة!

- انت بتتكلمي عن ورق كوتشينة؟! دي ميت جنيه... هي ميت جنيه قليلة؟!

- انتَ مش عايش في الدنيا؟! الأسعار ولَّعت... ما ليش دعوى هتقولي المعاش قليل وأنا ما معييش... دي مرة في السنة... اتصرف!

لم يجد أمامه إلَّا أن ينهي النقاش بأيَّةِ وسيلةٍ، فقدَّم لها خمسين جنيهًا، وقال:

- ده آخر ما معايا... خلاص مش قادر أتكلم... ما تضيعيش صيامنا!

انصرفت (نفيسة) وقد تملَّكها الغضبُ بعد ما أنهكها طول الحوار... وقالت في نفسها مزمجرةً:

انتَ هتروح مني فين؟! كفاية عليك كده النهاردة... ربنا يقدرني واخد كل اللي أنا عيزاه منك... هو أنا لسة خدت منك حاجة!

وبعد يومين من العمل المتواصل في صنع ما لذ وطاب من الكعك مع الأصحاب والجيران تحوَّل معها البيت إلى معسكرٍ تكلَّف فيه ربُّ البيت من المشقة والإزعاج ما أرهقه وأهدر طاقته...

وجاء يوم العيد وقد ازدحم البيت وأغلب جوانبه بأكوامٍ مكدسةٍ من الكعك على كافة أشكاله وألوانه بما يمثِّل ثروةً ضائعة في نظر (عبده)، وثروةً لا تقدَّر بثمنٍ في عيني (نفيسة)!

وازدحم البيت بالأبناء والأحفاد...

تقدَّمت كبرى بناتها بهدية للأمِّ، ووضعتها بين راحتيها... كانت علبة كبيرة... فتحتها الأمُّ لتجد كعك العيد، ويتصدَّر العلبة اسمٌ لمحلٍ شهيرٍ...

أسرعت الأمُّ لتقول:

- ليه يا بنتي كلِّفتِ نفسِك! ده أنا عملت كعك العيد وعملت حسابكم كلكم!

أجابت الابنة متعجبة:

- هو لسَّة في حد بيعمل الحجات دي دلوقتي؟! لا إحنا بناكلها ولا ولادنا بيكلوها!

نظر الأبُ إلى زوجته نظرةً لائمةً... تمتم بكلماتٍ خافتة كمن يحدث نفسه:

- مش قلنا كده من الأول... ولَّا هي مصاريف على الفاضي!

أجابت الأمُّ زوجَها وابنتَها في جملةٍ واحدةٍ:

- دي عادة... وربنا ما يقطعش لنا عادة!

*****

بلكونة بحري!

منذُ فترةٍ و(سعيد) "بيلف على كعوب رجليه" يبحثُ مع أخيه (علي) عن شقةٍ، فقد تجاوزَ (علي) منتصفَ العقد الثالث من عمره وأضحى على مشارف الأربعين ولم يتزوج بعد، وكان لابد له من شقةٍ معقولةٍ تشفعُ له عند عروسٍ مناسبةٍ، بعيدًا عن جنونِ أسعارِ التمليك ونظام الإيجارات الجديد الذي يأكل من "الخميرة" (شقى العمر)، وصدق المثل القائل: "خُذْ من التَّل يختل!"...

كان (سعيد) له وجهة نظر في الإيجارات الجديدة على نحو ما يتناسب مع هذا المثل، بينما كان (علي) الذي يصغره بخمسة عشر عامًا لا يفرق معه شيء... قانون جديد... قانون قديم... مفروش... لا يهم... المهم أن يتزوج، وكأنَّما يؤجِّل حياته كلَّها لما بعد الزواج... كان يظنُّ أنَّه بالزواج ستُحَلُّ جميع مشكلاته، ويحيا حياةً وردية لا مكان فيها للمنغِّصات...

وفي هذا المشوار شبه اليومي من حملات التنقيب عن شقة وسط القاهرة المزدحمة تنقَّلا من حيٍّ إلى آخر، ومن شارعٍ إلى آخر... لم يتركا مكانًا إلا وطأا أرضه... كانت أغلب الشقـق أو تكاد إما في أدوارٍ عُليا، أو في آخر

دور تلهبُها شمسُ الصيف وتنشعُ على جدرانها أمطار الشتاء، أو تكون قبليَّة، أو داخلية، وكثير من عيوب الضيق، والخنقة، والكتمة، والرطوبة...

ولم تكن تلك المواصفات لتغيب عن ذهن (سعيد) الذي كان يرى شروطًا ضرورية يجب أن تتوافر فيها – كان قد راعاها حين اختار شقته التي يقيم فيها – إلى جانب السعر المناسب من الإيجار، أو "خلو الرجل"، أو المبلغ الفائت في تجهيز الشقة الذي يأخذه منه الساكن السابق، لكن الزمن غير الزمن... "الله يرحم هذا الزمن"! أما الآن فالوضع يختلف...

عاد (سعيد) بعد إحدى الجولات وقد ودَّع أخاه ودخل بيته متعبًا يتصبَّب العرق أنهارًا... ارتمى على فراشه وراح في سباتٍ عميقٍ... تقاذفته أمواجُ أحلامه من ساحلِ فكرةٍ إلى ساحلِ فكرةٍ أخرى، يغرق في عمقها تارةً، ويطفو على سطحها أخرى...

انغمس في أحلامه... اخترقت أعماق ذهنه فكرةٌ لم تكن لتخطر بباله...

أسلمه نظره الضعيف على خبرٍ في إحدى صفحات الجريدة اليومية، لم يلتقط سوى بعض كلمات "المانشيت"... أسرع إلى نظارته فوضعها فوق عينيه ليقرأ بوضوح:

"نظرًا لانقطاع التيار الكهربي بشكلٍ مستمرٍّ وما يترتب عليه من توقف أجهزة التكييف والمراوح... فرض ضريبة على الهواء!!"

استفزته العبارة، فاستجمع عقله ليقرأ بنهمٍ كل حرف يصادفه:

"... وذلك بفرض ضريبة على البالكونات... كلُّ شقةٍ فيها بلكونة يدفع صاحبها عنها ضريبة تزيد في حالة كونها بحرية أو تطلُّ على مساحةٍ واسعةٍ، ولا سيما حديقة أو ميدان... والحكومة تدرس مشروع تطبيق تلك الضريبة على صاحب البناية إن كانت شقة للإيجار، وعلى صاحب الشقة في حالة كونها تمليك...

كانت مفاجأة مفزعة زادت من همومه وآلامه... جعلته يكلِّمُ نفسه:

"ضريبة على طعامه، وشرابه، وكسائه، وراتبه، ومسكنه... وكمان ضريبة على الهواء الذي نتنفسه! يا خبر!"

وفجأة انقطع التيار الكهربي فتوقف تيار الهواء المنبعث إليه عبر مروحة السقف، وكأنَّما انتُزِعَ النَّفَسُ الذي يتنفسه فهبَّ فزعًا من نومه وهو غارقٌ في عرقه!

حمد الله أن الأمر لم يعدو أكثر من كونه حلمًا من هلوسة الحرِّ... قام (سعيد) إلى نافذة حجرته ففتحها على مصراعيها وأخذ يستروح نسمات الهواء يملأ بها رئتيه...

رفع وجه وكفيه إلى السماء ممتنًا:

- الحمد لله ماعنديش بلكونة... ده حتة شباك... صحيح شباك بحري، بس مش بلكونة... الحمد لله إنَّه كان حلم!

*****

مكتب بدورين!

لم يكنْ لـ(عبد الشكور) الموظفِ البسيطِ في السجل المدني في حياته أدنى اختيار... لم يشذَّ شيءٌ من حياته عن هذا المسار الذي رُسم له، ولا عن البرواز الذي يحيط به إطارُه... حتى اسمه الذي صارَ به في زمن طفولته الأولى "أمثولة"... بدا به نموذجًا لرجلٍ كبيرٍ في صورة طفلٍ! كان ثقيلًا على شفاهِ أصدقائه فيتخفَّفون من رهبة ذلك الاسم وثقله... ينادونه (شيكو)... (كوكو)... (شيشو)... أو شيئًا من هذا القبيل...

لم يكن الأبُ الصارمُ ليستطيب هذا التدليل "الماسخ" على حد قوله، فما أعزَّ الابنَ باسمِ الجدِّ الوقور ذي الثقل، والاحترام، والتبجيل... يترفَّعُ به عن كلِّ ما يشينه من براءة الأطفال، ولزوم اللعب، والتدليل... فبدا الطفلُ في ظلِّ هذا الاسم كبيرًا قبل أن يكبر...

وتمرُّ الأيامُ ويسيرُ (عبد الشكور) في مسيرة حياته التي غُلِبَ عليها قسرًا، وليكملَ فصولَ حياتِه المقررة في غير رغبةٍ منه أو اختيارٍ... بدا ذلك واضحًا في دراسته، وعمله، وزواجه، وفي سكنه في جوار الوالدين سنواتٍ في شقتهم القديمة بحكم أنَّه وحيدهما، وقد رحلا تباعًا فورث عنهما الإقامة

فيها مع الزوجة والأبناء... كانت الشقةُ صغيرةً ولديه من البنين والبنات خمسة...

كان مع رقَّةِ حاله وضيق بيته بسكانه اسمًا على مسمًى شكورًا شاكرًا... يحمدُ اللهَ دومًا أن وهبَه أربعةَ جدرانٍ وسقفًا تأويه وتأوي الأسرة، التي لا تتوقف عن التوسع والنمو في ظلِّ ظروفٍ ماديةٍ مقيدة لوظيفته الراكدة التي لا تعرفُ للنمو الطبيعي معنًى... اهتدى أخيرًا إلى فكرةٍ يحلُّ بها المشكلةَ التي كم أتعبته واتعبت الزوجةَ! استنبطها أنصحُ أولاده في زيارته للعبِ في حجرة ابن الجيران، ثم تلقَّفتها الزوجةُ لتَدوِي بها في أذني الأبِ ليلَ نهارَ...

لم يكنْ (عبد الشكور) ليدَّخرَ في وسعِه شيئًا يفرِّجُ به عن زوجته وأبنائه ويوسِّعُ عليهم... احتاج الأمرُ إلى "جمعية"، وما إن أكرمه الله بتدبيرها وتقاضي مبلغها حتى أتى بالحلِّ العبقري... السرير أبو دورين!! فكرةٌ أتتْ تسعى إلى أرض الواقع... ليتحقَّقَ التوسُّعُ الرأسيُّ للنمو السكاني المطرد في شقته بعد أن ضاقَ البيتُ بالتوسع الأفقي!

نصبَ السريرَ بدوريه في موضع الحجرة الصغيرة التي لا تتسع جانبًا لسريرٍ غيره، في حين أبقى الرضيعَ إلى جانب أمِّهِ ينتهكُ بصراخه المستمر سكون ليله، في الحجرة التي تجمعه بالزوجة في فراشٍ أصبحَ مجرد مروره من

أمامه يفزعه... يخشى تكرار تجربة الإنجاب بعد أن فاجأته الزوجةُ بخمسة بينهما توأمين من الذكور ومثلهما من الإناث!

كان عملُه الصباحيُّ صورةً مماثلة، بل وأكثر وضوحًا في الزحام والتكدس... عددٌ من الحجرات الضيقة يتوسطُ إحداها مكتبُه المتواضع يحاصره من جهاته الأربع كثيرٌ من المكاتب المتواضعة مثله... وإن كان مكتبه صغيرًا لا يرتقي إلى كلمة مكتب! فأين هو من مكتب السيد المدير العام الذي ينفردُ بحجرةٍ قاصية بعيدًا عن زحام العملاء وضجيجهم...

وذات صباح أقبلت زائرة... شابةٌ صارخةُ الجمال مثيرةٌ في كامل زينتها وتألُّقها... تلقَّفتها نظراتُ الموظفين نساؤهم قبل رجالهم... كلٌّ له نظرةٌ تتنوع بين النقد اللاذع وبين الاستمتاع بالجمال... ظهرت آثارُ المفاجآة واضحةً أكثر في أعين النساء... غمز ولمز... استهجان واستنكار... تأفُّف وسخط... أما الرجال فقد ارتسمت على وجوههم ملامحُ متوترةٌ من البلاهة والتوهان في حين اشتعلت داخلهم خفيةً رغبةٌ محمومةٌ ملتهبةٌ!

لم تكن الزائرةُ المفعمة بالشباب والفتنة مجرد عميلة كغيرها ممن يترددن على المكان بوفرة، وإنَّما كانت زميلتهم الجديدة!

رمقها (عبد الشكور) بمشاعرٍ متناقضةٍ جمعَ فيها بين الاتجاهين... صورة بادية على وجهه كضجر الزميلات المتحفظات تجاه زميلتهن الوافدة

التي بالغت في الزينة وكأنَّها في عرض أزياء، بينما كان قلبُه يرقصُ طربًا على نغمات خطاها، شأن زملائه الرجال الذين اختطفتهم الأنوثة المتفجِّرة التي تعكسها ملابسها القصيرة المثيرة، والرقَّة التي يمتزجُ أريجُها مع كلِّ حرفٍ ينسابُ في عذوبةٍ من بين شفتيها...

وبعد التعارفِ بين الزملاء جاء دور الجولة الإرشادية التي قادها السيد المدير بنفسه... بدا فيها كترجمان صعيدي بعمته وجلبابه يصحب سائحة دانمركية شقراء بيضاء ملفوفة القوام متوردة الخدين... ثم اكتفى السيدُ المديرُ الذي غادر مكتبه - ولا يغادره إلا لكبيرٍ- مضطرًا بما لمحَ من مطاردةِ نظراتِ العاملين التي تهافتت عليها تهافت الذباب على الحلوى المكشوفة، إلى أن تحلَّى ببعض الانضباط لزوم الوقار والسنِّ، فطوى النفسَ على رغباتٍ مكبوتةٍ يتحررُ معها ولو للحظاتٍ في الخيال من عشرة ربع قرن من الأشغال الشاقة في سجن الزوجة!

كان من المفترض أن يكونَ للوافدة الجديدة مكتبٌ إلى جوار مكاتبهم التي تغصُّ بها الحجرةُ الضيقةُ، وقد أصرَّتْ عليه وتمسَّكت بحقِّها مثلهم في خصوصية المكتب ذي الأدراج التي تُفتحُ وتُغلقُ وفق مشيئتها وحدها، كما هو الحال عندهم!!

ومن جديد يتصارعُ الحزبان المؤيد والمعارض، وبالطبع كان رجالُ المكتب هم أعضاءَ الحزب الأول، بينما كان عامةُ أفراد الحزب الثاني ومؤسسوه هم النساء اللائي حركتهن تجاهها الغيرة، أو مسلك التحفُّظ الذي يحملُ في باطنه عجزهن عن مجاراتها في إبراز معالم الأنوثة، وقد تخطَّتْ أصغرُهُن مثل ضعف سنها...

صمتَ (عبد الشكور) انتظارًا لما سينجلي عنه الموقف... لا تتخطَّى عزومتُه هو من حوله "عزومة المركبية" فمن ذا الذي يفرِّط في مكتبه، إلَّا في حالة واحدة أن تشاركه فيه الحسناءُ صاروخيةُ القوام!

قفزَ في عقله الحلُّ فجأةً بالقياس إلى الحلِّ الذي أنهى مشكلتَه مع الأولاد بالأمس:

"لماذا لا نطبِّقُ فكرةَ السرير ذي الطابقين في العمل على المكاتب؟! سيكون حلًّا عبقريًا يعالج التكدس والزحام هناك!"

توارت في خياله خجلًا صورتُها وهي جارته في المكتب ذي الطابقين... وسواءٌ أكانت تشغلُ الطابق العلوي أم السفلي فكلاهما يضمنُ لبصرِه النهمِ الاتصالَ بمفاتنها المثيرة... أسرعَ ليخفي هذه الفكرة في باطن عقله... دثَّرها بغطاءٍ ثقيل الظلِّ من اللامعقول!!

انطلقَ إلى بيتِه يمنِّي نفسَهُ بأيامٍ سعيدةٍ مقبلةٍ مع القمرِ الذي سكنَ إلى جواره يتصبَّرُ في أحلامه بليلةٍ تشرقُ في صباحها شمسها على قلبه، لكنَّ أحلامَ الليلِ تبدَّدت مباشرةً حينما دخلَ مقرَّ عملِه! كانت الحجرةُ خاليةً من المكتب الذي عاشرَه سنواتِ عملِه الطويلِ! علمَ أنَّ الوافدةَ الجديدةَ استولت على مكتبه بأمرِ المدير العام لتستقرَ به إلى جواره...

لم تعد عينا (عبد الشكور) تقعُ عليها إلا نادرًا، كما لم يعد يهتمُ إلَّا بمحاولةِ الحصولِ على مكتبٍ جديدٍ بدلًا من الذي انتُزع منه حتى لو شغلَ طابقًا ثانٍ لمكتب أكثر شخصٍ يضيقُ به من بين زملائِه...

*****

مجرد همزة!

منذ انتقل إلى العمل في الهيئة الحكومية المرموقة وهو موضع حسد الأصدقاء والجيران... تحقَّق له أملًا راوده منذ سنوات، وإن كان قد جاءه متأخرًا... دخل إلى عمله منتشيًا... عبر البوابة الضخمة... ملأ عينيه من الاسم الذي تزين حروفه اللوحة الضخمة التي تعلو البوابة الرئيسة... عنونًا كبيرًا كُتبت حروفه العربية بقطاعات معدنية ضخمة مُذهَّبة يخطف بريقُها الأبصار...

تسلَّل إلى أذنيه شيءٌ عن التكلفة الباهظة لهذه الصنعة المتقنة فراعه الأمرُ، وصار على لسانه مضربًا للمثل يستشهد به دومًا في محيط الأسرة والأصدقاء مستدلًّا به على ما صار إليه من أهمية، وعلى أهمية عمله الذي لم يكن يخفى على أحدٍ... وإن كان عمله بسيطًا مقارنة بمن يعملون بهذه الهيئة الكبيرة فيكفيه أن يطلق عليهم - ولو بينه وبين نفسه – "زملاء!"... لكن أين هو منهم؟! فلا مجال للمقارنة من قريبٍ أو بعيدٍ في المستوى المادي أو الوضع الاجتماعي... ثم يعود ليصبِّر نفسَه فيذكر زملاء مهنته في الهيئات الحكومية الأخرى فيستعيد ثقته بنفسه وإحساسه بقيمته ويتيه فخرًا، فهو الأوفر حظًّا والأعلى راتبًا، ويكفيه ما أحرزه من نصرٍ حين يتذكَّر عدد

المتقدمين إلى الوظيفة التي شرفت به وشرف بها في "بوفيه" الهيئة... بينهم كثيرٌ من أصحاب الشهادات العليا، ولولا تدخُّل "الواسطة" التي "بُريت كعوب قدميه" في السعي إلى صاحبها، وذاب وجهه خجلًا في التذلل له لما حُسم هذا الصراع الشرس لصالحه!

صحبَ صغيرَه في يوم الإجازة الأسبوعية في نزهة ليمرَّا في طريقهما بواجهة الهيئة... أشار بملء فيه إلى مقرِّ عمله مباهيًا..

وضع صغيره يده على مشكلةٍ! قال متعجبًا:

- بابا! بص كده على الاسم ده!

وأشار التلميذ النابه إلى لوحة الاسم الضخمة المُذَهَّبة التي تتصدر واجهة المشهد...

أجاب الأب مفاخرًا:

- أيوه! حاجة تشرف، مش كده؟! لو تعرف اتكلفت كام اللوحة دي؟!

أردف الابنُ قائلًا:

- تشرَّف إيه بس؟! تصرفوا كل المصاريف على كلمتين، وكمان مكتوبين غلط!!

ذهل الرجل وتوقف عن الكلام، في حين استكمل الابنُ استهجانه:

- أيوه غلط. إزاي يكتبوا همزة تحت الألف؟! المفروض دي مش همزة قطع، دي ألف وصل! هو ما فيش حد بيراجع وراهم؟!

أحسَّ الرجلُ بخيبة أملٍ كبيرةٍ... حاول أن يجد مبرِّرًا أو منفذًا للخروج من الورطة... لم يكن من أصحاب الشهادات، لكنه كان يشعر بقيمته بين ذويه فهو يفكُّ الخطَّ، بل ويستطيع قراءة الجريدة الصباحية، فجرب النطق بالكلمة عدة مرات فلم يجد فرقًا كبيرًا في الصوت في حالة وجود همزة أو غيابها... حاول أن يجد ما يجادل به صغيره:

- يا بني مش فارقة، هو احنا في حصة نحو علشان تقولي همزة ولا مش همزة؟! وبعدين هو قانون يعني ما يتغيرش؟! ولو قانون مين اللي حطه ومين اللي ممكن يحاسبنا لو خالفناه؟!

ضحك الصغيرُ وقال متعجبًا:

- قانون إيه؟! دي لغة ونحو!

سأل الأبُ متحيرًا:

- يعني مين المسئول؟!

قال الابنُ: أنا سمعت مدرس العربي اتكلم مرة عن مكان اسمه "مجمع اللغة العربية"!

ردد الرجل الكلمة في دهشة:

- "مجمع"!!

وأمام إصرار الصغير اكتفى الأبُ بالصمت وسبح معه في تيار أفكاره متعجبًا:

- أنا أول مرة أسمع عن الموضوع ده، طيب الناس الكبار المتعلمين محدش لاحظ خالص الغلطة دي؟! دي تبقى غلطة كبيرة في حقنا كلنا!!

تمنَّى لو (غمز) عم (سعيد) ليحضر سلمه فيصعد عليه وينزل تلك الهمزة التي صارت تزعجه كلَّما مرَّ تحتها! وكما لم يلحظ الموظفون الخطأ فبالتأكيد لن يلحظوا الصواب!

قرَّر أن يحمل على عاتقه مسئولية التغيير، وخاصةً وهو يعلم اقتراب زيارة المسئول الكبير بالدولة... عزم على أن يرفع الأمر إلى الرؤساء والمديرين، لكنَّه لم يستطع أن يقهر خوفه من مواجهة أحدهم في أمرٍ كهذا، فاكتفى بالبوح به بين زملائه ومن اعتاد رؤيتهم من العمال والموظفين حتى أصبح الأمرُ حديثَ الساعة في الهيئة الحكومية كلِّها...

بذل الرؤساء جهدهم لتتبع مصدر الإشاعة المغرضة التي تنال من هيبة الهيئة لا سيما مع اقتراب الزيارة المرتقبة للمسئول الكبير، وما ستلقي به هذه المشكلة من ظلال على أمورٍ تهدد سمعتها أمامه، وقد تجشمت الشركة

جهودًا كبيرة في إعلانات، وعطاءات، وشركة نفذت، ومبالغ ضخمة أُنفقت حتى أُنجزت تلك التحفة المبهرة! ثم ماذا عن اللوحة الكبيرة وما سيجري عليها من تشويه جراء هذا الجزء المراء اقتطاعه؟! ولو فرضنا أنَّ الأمرَ تحقَّق على هذا النحو فأين يذهبون بهذا الجزء الزائد؟! وما سيجرُّ عليهم من نقل عهدة، وتغيير مواصفات في السجلات، مما قد يلقي بشبهة الاختلاس وتبديد العهدة على منفذيها!!

كل ذلك وزيارة المسئول وشيكة!!

وانتهت المشكلة بتوقيع الجزاء على من أطلق الإشاعة وتلاعب بسمعة الهيئة الكبيرة، وبتحذير شديد اللهجة من التحدث في هذا الأمر ولو على سبيل المزاح حتى تمرَّ على خير الزيارةُ المرتقبة..

وشاء الله ألَّا تخيب ظنونهم ومرَّت المركب بتلك العاصفة الهوجاء في أمان، وانتهت الزيارة بسلام...

وحين وقف أمام مكتب الصراف ليتقاضى راتبه الشهري، وعلم من المبلغ المخصوم مقدار الجزاء الذي وُقِّع عليه تبسَّم ساخرًا، وقال في نفسه:

- أنا كنت ناوي أروح "المجمع" ده اللي ابني بيقول عليه واتكلم في المشكلة يمكن ألاقي حل معاهم.. بس بعد ما خصموا لي، خسارة فيهم المشوار وحق المواصلات.. يالا مش فارقة... مجرد همزة!!

اثنين غيرنا!

لم يدرِ كيفَ مَرَّ به العمرُ سريعًا على مثلِ هذا النحو حتى وقفَ على أعتابِ الكهولةِ يودِّعُ مرحلةَ الشبابِ... سنواتٌ طويلةٌ مرَّت... أحلامُ الطفولة وعنفوانُ الفُتُوَّةِ والشبابِ... الدراسة... العمل... الزواج... الإنجاب... أمورٌ حياتية مرَّت بشكلٍ طبيعيٍّ مألوف مثلما تمرُّ على غيرِه... أفاقَ بعد لهاثِه الطويلِ في سباقِه مع الزمنِ وقد استوطنت جسدَه المكدودَ في السعي خلف لقمةِ العيشِ الأمراضُ... والحمد لله، إنَّها تلك الأمراض المعتادة التي تزورُ أهلَ هذا العصر في سنٍّ مبكرة - وأغلبنا في ذلك سواء- في حين لم تكن تزورُ أسلافَنا إلا في سنِّ الشيخوخة...

كم فكر (سيد) في الأمرِ وتأمَّله! تذكَّرَ والديه - رحمهما الله- اللذين لم يعرفا سِكَّةَ الطبيبِ إلى أن توفَّاهما الله بعد أن قاربا التسعين... ربَّما لو عاشا الحياةَ التي يحياها بضغوطِها وأعبائِها لكانَ الأمرُ انتهى بهما على صورةٍ أخرى مغايرةٍ!!

جلسَ (سيد) في عيادةِ التأمينِ الصحي ينتظرُ دورَه في صرفِ الدواءِ... كانت العيادةُ مكتظَّةً بعددٍ كبيرٍ من المنتفعين... كبار، وصغار... رجال، ونساء... وجوه مكفهرة من أصحاب العلل... وجوه بائسة من

طاقم العمل... أطباء... ممرضات... عاملات... مرتبات ضئيلة واهتمام مفقود... علاقة متوترة تخرجُ في صورةِ تعنيفٍ وتعالٍ من طرفٍ، واتهامٍ بالتقصيرِ من الطرفِ الآخرِ!

مَرَّ عليه الوقتُ ثقيلَ الظلِّ... بطيئًا مملًّا... لم يجد (سيد) ما يسلِّيه سوى تأمُّلِ أحوالِ الناسِ من حولِه، عملًا بالمثل القائل: "اللي يشوف بلاوي الناس تهون عليه بلوته"...

- الحمد لله... إحنا أحسن من غيرنا!

تفرَّسَ (سيد) في وجهِ المرأةِ التي كانت تجلسُ قُبالته... لم تكن ملامحُها غريبةً عليه... حاولَ أن يتذكَّرَها... اعتصرَ ذهنَه لعلَّه يزوِّدُه بتفاصيلَ العلاقةِ التي كانتْ تربطُ بينه وبين صاحبةِ تلك الملامحِ التي لا يزالُ يُشَبِّهُ عليها... ويبدو أن ذهنَه نالَه من الإجهادِ ما نالَ من جسدِه... حاولَ... وحاولَ... أجهدته المحاولةُ... لا يدري لمَ قفزتْ في ذهنِه فجأةً ذكرياتُ أيامِ الجامعةِ... كليَّة الآدابِ قسم علمِ النفسِ... كانَ مضربَ المثلِ بين زملائه في الوسامةِ... رياضي الجسم... ممشوق القوام... مستدير الوجه... مسترسل الشعر...

كيفَ جارَ عليه الزمانُ الغادرُ إلى أن صارَ إلى ما صار إليه؟! جسد منحنٍ... بدن مترهل... كرش ضخم... وجه هزيل يحوي عينين غائرتين،

وخدين مسحوبين... تتوسطُ أعلى رأسِه مساحةٌ خاليةٌ من الشعرِ، وعلى الجانبين لا يحملُ من ذكرى الشبابِ سوى بضعِ شعراتٍ سوداءَ وسط كومتين من الشعرِ الأبيضِ...

قذفتْ به عيناه من جديد إلى ملامحِ ذلك الوجه الذي يرميه إلى ساحلِ بحرٍ من ذكريات ماضٍ لم يجدِّد بعد ملامحه... تشبهُ إنسانةً لا يمكنُ أن ينساها... الحبُّ الأولُ... حبُّ الأيامِ الأولى في الجامعة... (سامية)... كانت أجمل فتاةٍ في الجامعةِ... صحيح، إنَّ الحُسْنَ درجاتٌ... وللجمالِ أماراتٌ... لكنَّها حظيت من الحسن والجمال بنصيبٍ وافرٍ... جمال الملامح... خِفَّة الروح... سحر اللفتات... عذوبة الكلمات... الجمال الغامض الذي يجعلك تتحيَّر في صاحبته، تتساءل متحيِّرًا عن أجمل شيءٍ فيها؟! فلا تتوصَّل إلى إجابةٍ شافيةٍ...

صاحتْ المرأةُ في عددٍ من الصغارِ أحاطوا بها... ساد المكان فجأة... "شَخْط ونطر"... صراخ... ولولة على سوء البخت...

قُطِعت تخيلاتُه فجأةً على حقيقةٍ واقعةٍ... لا يمكنُ أن تكونَ هي (سامية) الرقيقةَ الجذابةَ... اشمأزَ لفظاظةِ كلامِها... انتفضَ لعنفها... شاهدَها وهي تنخسُ طفلَها... رُسمت على وجهِها ملامحُ الغضبِ بتكشيرةِ تهديدٍ مفزعة وجهتها إليه وهي تضربُه على وجهِه بقسوةٍ...

حملقَ في وجهِها بتركيزٍ فلاحظت المرأةُ وبادلته نظرةً شرسةً مهددةً ورمقته شزرًا، ثم وجَّهَت كلَّ انتباهها من جديد إلى أحدِ صغارها كان شقيًّا لا يقرُّ له قرارٌ... يروحُ ويجيءُ في حالةٍ من هستيريا اللعب، وجنونِ الطفولةِ المشردةِ...

تعجَّب كيفَ ربطَ بين الشخصيتين في ذهنه فأسرَّها في نفسِه:

"لا يمكن تكون دي (سامية) أميرة كليَّة الآداب وفاتنة الجامعة... صحيح فيه شبه في بعض الملامح، لكن الجسم مختلف! أين غصن البان من شجرة الجميز؟! فين قوام الغزلان من جسم سيد قشطة؟!

فقد كانت امرأةً بدينةً... تلفُّ رأسَها بطرحةٍ سوداءَ، وتحوطُ جسدَها بثيابٍ فضفاضةٍ واسعةٍ!

تكرَّرَ نداءُ الموظفِ على نافذةِ صرف العلاج:

- مدام (سامية عامر)...

أرهفَ السمع.. عادَ المنادي ليكرِّر الاسم..

قالَ في نفسِه:

يخلق من الشبه أربعين!! طيب... كمان الاسم؟! دي آخر واحدة ممكن تكون هي (سامية) اللي أقصدها!

وكم كانت المفاجأة حينما تحرَّكت المرأةُ لتجيبَ مناديها! كانت المرأةُ هي (سامية) بعينها!

تسمَّرَ (سيد) من المفاجأة... مَرَّتْ عليه لحظاتٌ، كانت المرأةُ قد تلقَّت أثناءَها الدواءَ، وتحرَّكت نحو البابِ خارجةً...

لم يكن لمثلِه أن يضيِّعَ تلك الفرصة التي ربَّما لن تتكرَّر... عشرات السنين لم ينسها... يحلمُ بها... يتمنَّى لقاءَها... حتى بعد أن تزوَّجَ بأخرى وأنجبَ الأولادَ والبنات!

وقفَ أمامها فجأةً... اعترضَ طريقَها... زجرتْ غاضبةً وانفجرتْ في وجهِه:

- وبعدين يا راجل انتَ؟! انت ما وركش غيري ولا إيه؟! سيباك من الصبح بتبص عليَّ وتعاكسني ودلوقتي واقف لي! هتوسَّع من طريقي ولَّا...!

قاطعها بلطفٍ رغم أسلوبِها الفظِّ، وبرقَّةٍ شديدةٍ خاطبَها:

- انتِ مش فكراني؟!

- يا عم وسَّع من طريقي! انت عايز إيه يا جدع انت!!

- أنا (سيد محمدين)... كلية الآداب... قسم علم النفس...

- ...!!

- انتِ مش فاكراني يا (سامية)؟!

وبصعوبةٍ وبجهدٍ كبير... أجابتْ:

- أيوه... أنا (سامية)... أيوه... وفاكرة (سيد)... (سيد) فلانتينو الجامعة... لكن انتَ مين؟! مش ممكن تكون انتَ هُو؟! أنا فاكرة شكله كويس!

وفجأةً التفتت... جرتْ خطوتين لتنتزعَ ابنها الشقي من الأرضِ التي يتمرَّغُ فوقها صارخًا... جذبته بعنف... صرختْ فيه:

- ياللا يا اللي تتشك في قلبك نروَّح! انتَ تعبتني!

لم تلتفت الأمُّ إلى محدِّثها... وانطلقت هي وأطفالها الأربعة في طريقهم...

أيقنَ (سيد) أنَّه فقد ذكرى تلك الأيام الجميلة مثلما فقدَ ثوبَ الشباب... قالَ في نفسِه:

"دي مش (سامية)!!"

وتحرَّكت عيناه إلى مرآةٍ تحتل نصفَ الحائطِ أمامه، لينظرَ إلى صورتِه، مستكملًا حديثَ نفسِه:

"ولا ده (سيد)! لها حق ما تفتكرنيش!"

وقالَ مازحًا في نفسِه، وإن علا بها صوته:

- دول لازم اتنين غيرنا!!

تشابه أسماء!

منذُ أن تفتَّحتْ زهرةُ عمره على الدنيا ، وبدأ ينفتحُ على الحياةِ خارج نطاق أسرته وهو يتأذَّى... يُسئلُ عن اسمه واسم أبيه فينطلقُ لسانه، ثم يتوقَّف! يستحثَّهُ السائلُ فيكملُ مُكرَهًا يتعثرُ في طياتِ خجلِه... لا يجدُ ما يبرِّرُ به ذلك الاسم البشع الذي كان ولا يزال نقطة ضعفه التي يتوارى منها... مع كلِّ سؤالٍ عن اسمه ينتابه إحساسٌ لاذعٌ، وكأنَّكَ تُعَرِّي ظهركَ لجلادك فيعلوكَ بسياطٍ من السخريةِ لا يملُّ ولا يتوقف!

كلُّنا يعرف أنَّه لا يحقُّ لأحدٍ أن يستعملَ ما يخصُّكَ بغير إذنكَ عدا اسمكَ هو حقٌّ مشاعٌ للجميع... والاسمُ الذي تتسمَّى به ليس من كسبِ يدكَ، ولكنَّه جناية والدكَ فكيف تُحاسب عليه؟! فما بالكَ باسم جدِّ جدِّكَ الذي تَسَمَّى به قبل أن تُدَوَّنُ الدوايين في الزمن الغابر؟!

سمع عن أشخاصٍ غيَّروا أسماءَهم بعد جهدٍ وعناءٍ، وقضايا ومحاكم! لكن هل في مقدوركَ أن تغيرَ اسم جدِّكَ؟! لقب العائلة التي تعتزُّ به في محيطها، فإذا ما غادرتها إلى خارجها صِرتَ أضحوكةً في الأفواه، فاختار أن يبقى اسمه حبيسًا في صدره ما لم يُستَعلَمُ عنه رسميًّا، أو يجري التعاملُ به على الورق...

وكثيرًا ما تجري الأقدارُ على عجائبٍ ومفارقاتٍ، إذ يدخلُ اسمُ العائلة المثيرُ للسخرية هذا عالمَ الشهرة فجأة! ويتسلَّم أحدُ أقاربه من بعيد حقيبةً وزاريةً، ويُعتَمدُ وزيرًا، ليصبحَ اسمُه هـذا نارًا على علمٍ!

كان الاسمُ مُمَيَّزًا لا يتكرَّرُ، ولن يتصورَ أحدٌ أنَّهُ - وهو يحمل لقبه نفسه- لم يلتقيه يومًا! يتطابق الاسمان بينهما أبًا وجدًا ولم يره يومًا، وربما لم يسمع به! وكلُّ عائلةٍ تتفرعُ وتتسعُ، تضمُّ الغنيَّ والفقيرَ، وتتسعُ الهوة بين أفرعها الكثيرة باتساع الفروق الطبقية فيما بينها...

لم يهتم بهذه الحقيقة وآثر أن يعيش في عالم الأحلام... أخيرًا شعرَ بقيمته، ولتتحول نقطةُ ضعفه إلى نقطةِ قوةٍ ودعمٍ، وأصبحَ لقبُه - بقدرةِ قادرٍ- تاجًا فوق رأسِه حتى أنَّه طغى على اسمه واسم وأبيه، وأصبح مفتاحًا ينفذ معه عبر كلِّ بابٍ!

كان عهده بسوق العمل ليس ببعيد؛ فقد كان حديثَ التخرُّجِ في كليَّةٍ يتخرَّج فيها أمثاله ألوفٌ مؤلفةٌ... وكم أُوصدتْ دونه أبوابٌ... يتساوى في ذلك العمل الحكومي مع العمل الحرِّ، والمشروعات العامة ونظيرتها الخاصة! لكن اليوم كلُّ شيءٍ تغيَّر فالجميعُ يخطبُ ودَّه، ويتقرَّبُ إليه!

تمسَّكَ بالحُلم... اختلقَ من الوهم قصصًا حاكها أحداثًا قديمة وحديثة جمعته بالقريب صاحب الوجاهة في ماضيه ذكريات الطفولة

والشباب، وفي حاضره ومستقبله مشروعات وأحلام... وصدَّق الكذبة وروَّجَ لها، ولو اقتصرت مكاسبه منها على الكفِّ عن الاستهزاء به فهو المستفيد...

دفعه طموحُه إلى جعل الخيال حقيقةً فترصَّدَ الرجلَ، وتابع نشاطه عبر صفحات الجرائد، ووسائل الإعلام فتعرَّف على جميع حركاته، وسكناته... تأكَّدَ من عودته بعد سفرٍ أيامٍ من الخارج فذهب إلى مكتبه ورابط عنده... التقى بمدير مكتبه، فعرَّفه بنفسه... ليس لديه موعدٌ مسبقٌ، فلا مواعيد بين الأهل... تحيَّر مدير مكتبه أمام جرأته، ولباقته، وثقته... انساقَ أكثر في تقديم نفسه فأعطاه كارتًا يحمل اسمه... بدا أمامه صادقًا، والأمر واضحًا لا يقبل الشكَّ فبالغ في احترامه، وتبجيله...

استأذنه للحظة ليخبر جناب الوزير عن ضيفه الذي تردَّد مراتٍ على مكتبه، ونسج على سمعه وسمع ضيوفه قصصًا جمعت بينه وبينه... غاب مدير مكتبه فانتابه القلق، ثم انفتح بابٌ آخرٌ دلف منه رجلان أشداء في أجساد العمالقة وسحنة المردة، انتزعاه من مكانه انتزاعًا ليخرجَ تودِّعه لعناتُ مدير مكتب الوزير، وقد تلقَّى بدوره وابلًا من السباب من جناب الوزير الذي تأكَّد في ظنِّه أن دائرةَ أعدائه اتسعت، وأنَّ مكائدهم قد

تطوَّرت حتى جنَّدوا ذلك المزوِّر المُدَّعي الذي يستغلُ اسمه لتحقيق أغراضه...

فرَّ بجلده هاربًا قبل أن يتطوَّر الأمرُ إلى استدعاء الشرطة... أيقن أنَّه أصبحَ لجنابِ الوزير صيدًا سيتتبعه بضراوة حتى يقتنصه، ويظفر به! سيطرت عليه حالةٌ من الرعب... فكَّر أن يغادر مسكنه وعمله، لكن الأيامَ أثبتتْ له أنَّه أهون على جنابه من أن يذكره، فنسيه في خضم أعماله الجسيمة، ومشروعاته المتسعة...

وعاش صاحبنا في أعين الناس كبيرًا... اسمًا معروفًا، لكنَّه في الحقيقة لا يعدو أكثر من كونه... مجرد تشابه أسماء!

*****

ولاد الحرام مخلوش لولاد الحلال حاجة!

سار (عامر) يصحبه ولده الصغير... تتنافس الفرحتان... فرحة الوالد بولده، وفرحة الولد بوالده... تتعانق الفرحتان... يقتسمها قلباهما...

كم كان (عامر) سعيدًا وهو يمسك بفرحة عمره وقد تجسَّدت طفلًا يكبر يومًا بعد يوم وتكبر معه آماله فيه! وكم كانت فرحة الطفل وهو يمسك يدَ أبيه سنده وحمايته!

كان الأبُ في طريقه لزيارة أحدِ أقاربه في واجبٍ اجتماعيٍّ تحتمه الظروف... والطفل فرحٌ بالنزهة التي تتكرر على فترات متباعدة... سارا في طريقهما... خطواتٍ قصيرة متعجلة على إثر خطواتٍ طويلةٍ واثقةٍ... مفروشة بضحكات طفولته الغضَّة، وبسمات الرضا التى تملأ قلب الأب وتفيض على شفتيه...

وفجأة قطعت ابتسامةَ الطفل صورةٌ اعتاد الأبُ أن يراها، لكنها اغتالت أحلام الطفل الذي لم يسبق له أن رأى من العالم إلَّا وجهه المضيء... متسوِّل بدت عليه آثار القذارة، والقبح، والإهمال يستجدي

الناس عطاءهم... يسوق لهم من المبررات ما يمزِّق به قلوبهم ويستدرُّ عطفهم:

- أنا مسافر وجاي من مكان بعيد... عايز أرجع بلدنا والفلوس اتسرقت... طمعان في كرمكم يا أهل الخير ربنا يخلف عليكم بالحلال...

داعبت تلك الكلمات المؤثرة المختلطة بهيئة "تقطِّع القلب" قلبَ الصغير... طلب من الأبِ أن يعطيه مالًا يسدُّ به حاجته... وقف الأبُ مبهوتًا فما أكثر ما رأى هذا الرجل وأمثاله يتسوَّلون بحججٍ شتَّى! لكن كيف سيبرِّر لصغيره إحجامه عن مساعدة الغير؟!

وأمام إصرار الصغير أخرج الأبُ عددًا قليلًا من الأوراق المالية من جيب سترته... تأملها ووازن بينها ليختار ما يصلح لتلك المهمة التي يفتقر فيها إلى الحماس... كان الطفل على صغره خبيرًا بتلك الأوراق يعرفها جيدًا، فعقول الأطفال تستوعب اليوم ما نستوعبه ونحن في سنِّ الشباب... أشار الابنُ إلى الورقة الكبيرة... ذكَّر الأبَ بقيمة الصدقة وفضلها عند الله:

- بابا! أبلة علمتنا في المدرسة أن الحسنة بعشر أمثالها... يعني كل جنيه نقدِّمه للفقير ربنا يدينا بيه عشرة جنيه، ويبني لنا قصر في الجنة...

ألحَّ الابنُ على الأبِ وأكثر الإلحاح... وأمام سعادة الأبِ بما تعلمه الابن ورغبته في عمل الخير لم يتردد في إخراج أكبر أوراقه المالية رغم حاجته

الشديدة إليها، فالشهر لم يزل في منتصفه، والمرتب قارب على النفاد، ومصاريف البيت لا تتوقف...

اختطف الصغير الورقة المالية ذات العشرين جنيهًا من يد الأب ليقطع عليه تردده، ثم قفز خطواتٍ متلاحقة يطير كالفراشة حتى دنا من الشحَّاذ فأعطاه في يده المال... ثم عاد إلى الأب يقول:

- الأبلة في المدرسة بتقول إن الواحد لَمَّا يقدِّم صدقة لفقير بياخد حسنات... اللي قدِّم بإيديه واللي خدها منه... يعني أنا وانتَ ربنا هيكتب لنا حسنات كتير...

نسي الأبُ احتياجه للمال أمام هذه الكلمات الجميلة واكتفى بقوله:

- ربنا يفتح عليك يا بني!

واحتضن الأبُ ابنه وقبَّله... وكانت سعادته به لا تقدَّر بمال... وإن هي إلا لحظات حتى وصل الرجلُ وصغيره إلى قريبه لزيارته والاطمئنان عليه، وأمضى عنده ساعات النهار وبعضًا من الليل، ثم قفل عائدًا يتبعه الصغير وإذ به يرى نفس الرجل في نفس الموضع وقد ساق للتسوُّل مبرِّرًا جديدًا:

- أنا مريض وعندي فشل كلوي وبصرف على ولاد كتير تعبانين وست عاجزة... يا أهل الخير! ينوبكوا ثواب!

خاطب الصغير أباه متعجِّبًا:

- بابا هو الراجل ده مش كان عايز فلوس يسافر بيها؟! أُمَّال إيه اللي عيَّان وعياله تعبانين؟! هي الفلوس اللي خدها ما كفتش علشان ترجَّعه بلده؟!

لم يشأ الأبُ أن يفجع براءة الطفل ويكشف مكرَ مثل هذا الرجل وخداعه فلم يُعَلِّقْ واستحثَّ ابنه على السير بحجة تأخرهم وقلقل ماما عليهما...

حمد الله أن البيت ليس عنهما ببعيد، وإلَّا فكيف كان سيعود بصغيره بعد نفاد ما معه؟! أشفق على الصغير من المشي بعد أن بدأت أقدامه تكلُّ والنعاس يتسلل إلى عينيه، فحمله وسار به متثاقلًا، وقد استسلم للنوم بين ذراعيه... سار أمتارًا طويلة حتى لاح منزله أمام عينيه... لم يعد يفصل (عامر) عنه إلا الطريق الرئيس فطفق يجتازه مجهدًا وما كاد يعبره حتى صادف شابًّا بادر إليه يسأله:

- هيَّ "العباسية" في الاتجاه ده؟! - وأشار الفتى على امتداد ذراعه- يعني أنا ماشي كده صح؟!

التقت عينا (عامر) بعيني الشاب... أحسَّ في نظراته بالحاجة، لكن منعته عفَّته عن المسألة...

أجابه (عامر) وهو يتحسَّس جيب سترته الذي أصبح خاليًا:

- أيوه... بس "العباسية" بعيد... إحنا في "الزيتون"!

شكره الشاب وهمَّ مسرعًا يجتاز طريقه حتى غاب عن عينيه...

حزن (عامر) لأنَّه لم يقدِّم له ما يعينه على طريقه الطويل، ولام نفسه:

"كنت هخسر إيه لو إدِّيته جنيه ولا اتنين يركب بيها "مترو" أو "أتوبيس"؟!"

لم يعد معه ما يتصدَّق به... ذهب المتسوِّل إيَّاه بجميع ما معه! وقال في نفسه كلمات أخرجها الغيظ من بين شفتيه وهو يجزُّ عليها حنقًا:

"ولاد الحرام ماخلوش لولاد الحلال حاجة!"...

حمد الله أن صغيره ما زال بين يديه نائمًا، وإلَّا كان سيسأله عن هذا الكلام... كيف كان سيشرح له معناه؟!

ثم عاد يستطرد في نفسه قائلًا:

- لزومه إيه الشرح؟! بكره يعيش والدنيا يا ما هتورِّيه... الدنيا أكبر مُعَلِّم!

*****

"عامل من بنها!"

بكَّرَ اليوم في الخروجِ إلى العمل... لم ينتظر حتى تشرقَ شمسُ الشتاءِ الكليلةِ التي تتأخرُ لما بعد السادسة... بالتأكيد كانَ وراءَ الأمرِ سببٌ... حتمًا سيكونُ يومًا مشهودًا إذ تنتظرُه في عملِه زيارةُ السيدِ مديرِ الإدارةِ... كانَ قد ودَّعَ العملَ أمس في ساعةٍ متأخرةٍ من النهارِ بعد أن أتمَّ الإعدادَ لتلك الزيارة، واليومَ يستقبلُه متأهبًا مستعدًا لتلك الزيارةِ المرتقبة...

ولأولِ مرَّةٍ منذُ أن التحقَ بالعملِ في هذا الموقع يكون على عجلةٍ من أمرِه، وهو المعتادُ دومًا على الوقوف بباب المصلحة الحكومية قبل موعد الحضور بفترة متجنبًا ازدحام المواصلات، مما كان يجعله عرضةً للإحراجِ يلمحه باديًا على قسمات وجه عم (جلال) مسئول الأمن بالعمل وهو يستقبله قبل زملائه بزمنٍ، ذلك الرجل الذي ربما قد ضجر بهذا الذي يزيد من ساعات عمله التي حددتها له الحكومة زيادة غير مدفوعة الأجر، ويكاد يقرأ أفكاره:

"يا فتَّاح يا عليم! يا رزاق يا كريم! انت كنت بايت في الشارع؟!"

واليوم لا مبرر لهذا الضجر والمسئول الكبير في طريقه إليهم، والاستعداد يجري منذ أمس وحتى الآن على قدمٍ وساقٍ...

وصل إلى موقف "الميكروباص"... فتَّشَ بعينيه عن "الميكروباص" المُعَدُّ للانطلاق! فرأى سائقه ينادي رغم أن السيارة كانت مكتظة، وكعادةِ هؤلاء النفرِ من السائقين لم يُفْصِحْ واحدٌ منهم عن السيارة التي تليها طالما كان هناك مقعدٌ لم يزل شاغرًا في الأولى... وما هي إلَّا لحظات حتى امتلأت السيارة "على تَمَّةِ عينها"... وأُشيرَ إلى "الميكروباص" الذي حلَّ مكان سابقه... ركبه، وأخذ فيه مركز الصدارة، وانتقى مكانًا متميزًا بجوار الشباك الوحيد المفتوح به... وفي التو ازدحمت السيارة بالركاب وأُغلِقَ عليهم بابها لتنطلقَ... تَجِدُّ في السير تحت عبء ازدحامها بركابها.. تكافحُ وعورةَ الطريقِ، وضعف لياقتها البدنية؛ فقد فضحها صريرُ المساعدين وما ترتكز به علي عجلاتها من سست..

وفي تصرُّفٍ لا إراديٍّ اعتادَ عليه، سَبَّقَ بتقديمِ الأجرةِ إلى جاره في المقعد... أسرعت بها يدُه قبل أن يتورَّطَ هو في جمع الأجرة من سائر الركاب، وهكذا جمع المتطوِّعُ الأجرة من الركاب جنيهًا واحدًا عن كلٍّ منهم، والحمد لله لا تزال على هيئتها رغم مرور عدة شهورٍ على فرضها!

تداولت الأيدي الأجرة في طريقها إلى السائق، فلم يهتم صاحبنا طالما أدَّى ما عليه، فلتذهب حيث شاءتْ لها الأقدار فقد أراحَ نفسَه من عبءِ

جمعها... وانفصل عن جيرانه الركاب يفكرُ فيما ستجرُّه عليه تلك الزيارة من خيرٍ أو شرٍّ...

قطع عزلةَ الصمتِ لديه صوتُ شجارٍ، وهكذا يتصاعد من كلمة، وربَّما إيماءة ليتفجَّر بركانٌ من غضبٍ... وخلال غبار الكلمات المتشابكة ما بين السائق وبين أحد ركاب عربته التقطت أذنا صاحبنا عباراتٍ كثيرة فسَّر منها سر الاشتباك... بدأت الحكاية بأن قدَّم الراكب ورقة فئة العشرين جنيهًا وقال:

- نفر واحد من عشرين...

فكان جواب السائق الذي بدا تقليديًّا بعض الشيء:

- ما فيش فكَّة... شوف فكَّة معاك؟

احتدَّ الراكب عليه قائلًا:

- وانا كمان مش معايا فكَّة! ما تفكَّها من معاك! اتصرف! مش ده شغلك؟!

انفجر السائقُ غاضبًا:

- أنا سوَّاق على عربية، مش صاحب كشك سجاير! ما قلتش ليه إن ما معكش فكَّة قبل ما تركب؟!

قال الشاب:

- أنا قولت لك قبل ما أركب أنا عايز أفك... بس انتَ كنت "عامل من بنها"...

وكأن العبارة الأخيرة قالب طوب نزل به الراكبُ الشاب على رأس السائق الكهل فزدادت حدتُه فأوقف السيارة، ونزل وأنزل الشاب، تراشقا بالشتائم... لم يصل الأمر إلى التشابك بالأيدي... ثم صعد السائقُ العربة نتيجة نداءات الركاب المتعجلة الحانقة، لكنَّه صعد إليها وحده، وودَّعها الشاب بأقذع السباب...

انطلقت العربة وخمدت جذوة المشاجرة بانفصال طرفيها، ولا يزال السائقُ يتمتمُ في غيظ:

- أنا... "عامل من بنها"... أنا؟! هي دي التربية؟! واحد كبير زي والده ويقول له كده؟!

كانت هذه هي المرَّة الأولى التي يسمع فيها صاحبنا مثل هذه العبارة التي علقت بذهنه من تلك المشاجرة التي اعتاد على سماعها كغيرها وسرعان ما تُنسى عباراتها... "تدخل من أذنٍ وتخرج من الأخرى"... إلَّا هذه العبارة التي عصفت بعقل السائق وأخرجته عن بلادة طباعه... أجهد عقله في محاولةٍ ليتوصل إلى معناها... بينما لا يزال الصمتُ يخيم على جيرانه

الركاب الذين كانوا في حلٍّ من تلك المهاترات فكلٌّ له ما يشغله فيما يتوقعه من يومِ عمله وما يجرُّه عليه من مشقة، وكان هو في شغلٍ أكبر منهم...

فكرَ أن يسألَ السائق عن معنى العبارة، لكنَّه تداركَ أمره فلربَّما صار إلى ما صار إليه ذلك الشاب...

وصلَ "الميكروباص" أخيرًا إلى الموقف، فنزل دركاته القليلة حتى استوت قدماه على الطريق... سأله أحد المارة:

- "الميكروباص" ده رايح فين لو سمحت؟

لم تزل العبارة التي سمعها في "المكروباص" تتردد أصداؤها في ذهنه فبادرته يهذي بها في خفوتٍ، ويكلم نفسه... فميَّزَ السائل منها كلمة... "بنها"... فقال متسائلًا في حنقٍ المتعجب:

- بنها؟! انت بتهزر؟!

تنبَّه إلى ردِّ فعل السائل الذي قاده إلى أن تذكَّر السؤال الذي طرحه عليه من فوره...

أعدَّ له جوابًا، لكن بعد أن ابتلع ذلك الزحامُ الرجلَ، وغاب عن عينيه!

وفجأة نسي كلَّ شيءٍ ولم يذكر إلَّا الزيارة المتوقعة للسيد المهم وهو يتمتمُ مستنكرًا:

- ربنا يستر... إيه الفال ده؟!

ثمن الشهامة

استقل "الأتوبيس" كعادته كل يوم، لم يكن يفضِّل تلك المواصلات المزدحمة لكن "آدي الله وآدي حكمته!"...

كان ثمن الترقية وزيادة المرتب أن ينتقل إلى مقرٍّ عملٍ ناءٍ يقع على أطراف العاصمة، كان "الأتوبيس" هو المواصلة الوحيدة المتاحة أمامه...

كان يركبه من أول الخط وكان ذلك يتيح له فرصةَ اقتناص مقعد يضمن له النجاة من الزحام الشديد طوال الرحلة التي تكسر حاجز الساعة من عمر الزمن...

انتظر بين جموع الناس "الأتوبيس" رقم (...) وما إن جاءت البشرى بقدومه حتى تدافعت جموع الناس التي طال بهم الشوق! تقتحمه... اختلطت عبر أبوابه أفواجٌ من الصاعدين والهابطين... وبعد جهد جهيد نجح أخيرًا في اختراق باب الحافلة، وارتمى على المقعد الذي لم يجد سواه خاليًا...

كانت أشعة الشمس قد ألهبت سطحه الجلدي فصار نارًا تلظَّى...

ارتمى عليه جالسًا وليتحمَّل أذاه لحظات حتى يكتسب درجة حرارة جسمه... كان قد اعتاد من تجربته الطويلة مع رحلة العمل - التي تقارب

في طول مدتها السفر- على النوم بمجرد أن يُسلِمَ جسده للمقعد... يفرُّ بالنوم أحيانًا من بعض المواقف التي قد تسبب له الحرج... فتاة جميلة يحظى بنظرة إعجاب من عينيها تُقَيِّمُ بها شهامته، أو يتحاشى منها نظرة لائمة تستعيض بها عن قولها: "انتَ ما عندكش إخوات بنات؟!"

أو يصادف رجلًا مسنًّا... امرأةً حامل... وغيرها من المواقف التي تستفزُّ شهامته فيلبِّي نداء الواجب، لكنَّه أحيانًا قد يكون في غنى عن هذه الشهامة إن كانت ستجلب له المشكلات... ومنها تلك المشكلة التي وقع فيها ذات مرة...

فبينا هو جالس على مقعدٍ بعيدٍ عن النافذة إذ به يفيق من غفوة قصيرة اختلسها على ضجيج، واحتكاكات، ومشاجرات... على يساره مباشرةً كانت تقف امرأة ثرثارة "تخانق دبان وشها"... "تشاكل طوب الأرض"...

تطلق لسانها على هذا وذاك... تشتكي زمنًا ماتت فيه النخوة، وضاعت الرجولة لتُترَك النساءُ يزاحمهن الرجالُ...

أحسَّ بأن الكلام موجَّه إليه ولن يستطع أن يهرب بنومٍ، أو تشاغل، أو حتى ادعاء التعب... لن تُستسَاغ حجة امتلاء ممر الحافلة بالنساء وخوفك أن ينتقض وضوؤك!

فقام من مقامه ليفسح لها مكانه بالجلوس... لم تتردد المرأة فاقتنصت الفرصة بغير تردد... وبغير كلمة شكرٍ واحدةٍ... افترشت بجسدها الضخم المقعد لتجور على جارها في المقعد وتحذِّر كل من تسوِّل له نفسه أن يقترب منها، أو يسوقه حظُّه العاثر إلى الوقوف بجانب مقعدها...

تراجع صاحبنا بعض الشيء عن موضع قدميه بجوار كرسيِّه الذي فقده بسيف الحياء... ورسم على شفتيه ابتسامةً مصطنعة، عملًا بالمثل القائل: "إن جالك الغصب خده بالرضا!"...

ويُشكر طبعًا على هذا الموقف الذي يحمل له كلَّ الاحترامِ على نخوته وشهامته، لكنَّ هذا لم يكن رأي جميع الموجودين الذين عزَّ عليهم أن يكونوا مجرد متفرجين لا مشاركين - وأقصد طبعًا جموع الوقوف من الجنس اللطيف – فقد تحركت في نفوس الكثيرات منهن الغيرة، والحنق على ذلك الرجل سيِّء التقدير... كلٌّ منهن كانت ترى نفسها أهلًا لهذا المعروف وأحقُّ بالراحة من المرأة كثيرة الكلام و"الشَّكَل" التي أجهدتهم به وهي منهكة من الوقوف، فكيف الحال إذا جلست واستراحت؟! ستستجير منها الدنيا كلُّها، ولا شك!

ولم تخيِّب هذه المرأة ظنَّهن... فعلى الرغم من المساحة الكبيرة التي تشغلها إلا أنها بدت ساخطة متذمِّرة مِنْ كلِّ مَنْ ساقه حظُّه العاثر في

طريقها... الذي يجاورها في المقعد، أو يقف بجوارها، أو يمسك بحافة الكرسي الذي تجلس عليه أو يتقدَّمه...

والرجال في مثل تلك المواقف غالبًا ما يتذرَّعون بالصمت وكظم الغيظ، فمن ذا الذي يستطيع أن يجاري امرأةً في نقاش في الأماكن المزدحمة والمغلقة... ولا يقدر على القوي إلَّا الأقوى منه! والمرأة لا يقدر عليها إلَّا امرأة مثلها!

بدأت مشاجرة بنظرة صبَّتها إحدى الواقفات على المرأة الجالسة الفائزة بالمقعد، تلتها بمصمصة الشفايف في حركة لا إرادية لم تستطع كتمانها... فانفجرت فيها الجالسة مباشرة بجرأةٍ وبغير تمهيدٍ كالمدفع... وطبعًا جاءت رِجْلُ صاحبنا في الكلام:

- أيوه... انتِ متغاظة علشان قعَّدني وسابك واقفة! راجل عنده نظر!

حرَّكت كلماتُها الغيرةَ في صدر المرأة الواقفة فانفجرت فيها تضرب بلسانها هنا وهناك وقد نال صاحبنا من أذاها ما ناله:

- هوَ لو كان عنده نظر كان سابني وقعَّدك!

انفجرت هذه السبَّة في وجهه فابتلعها متألِّمًا ولامها بأدبٍ:

- إيه يا ست انتِ! هي دي جزاتي؟!

وجدت المرأة الثرثارة بغيتها وقد أخذ الحديث هذا الاتجاه المحبب إليها... فشمَّرت عن لسانها و"طاحت في الكل":

- طبعًا عنده نظر... مش زي الأفندية اللي قاعدين عاملين لي رجالة...

وتحوَّلت المشكلة "بقدرة قادر" من أزمة شخصية بين امرأتين تحكمهما فيها دوافع الغيرة إلى أزمة عامة... رجالة وستات... هذا ظالم وهذه مظلومة... وذاك مظلوم وتلك ظالمة...

ظلَّت الأمور في تأزُّم واشتعال حتى وصل "الأتوبيس" إلى محطته، فتحرَّك في صعوبة نحو بابه فخاطبه أحدُ الركاب قائلًا:

- انتَ السبب... انتَ اللي عملت لنا المشاكل دي كلها... ربنا يسامحك... يا عم كنت سبتها واقفة! صعبانة عليك أوي!

لم يجد شيئًا من لغة الكلام يجبه بها...

اكتفى بتلك الدهشة التي ارتسمت على وجهه وانعقد لها حاجباه...

لم يشغل نفسه باللوم على ما فعل من معروفٍ في غير أهله وما تسبب له من حرج وإهانة... المهم أنَّه وصل... وعلى قدر المشقة تأتي الراحة... وقد أحسَّ أن الوقت مرَّ عليه أسرع بتلك التسلية المجانية!

أما "الأتوبيس" فقد خلا من أكثر ركابه لتجد المرأة الثرثارة نفسها فجأة في قلَّةٍ من الركاب... لا تجد من تناكفه...

فرمل "الأتوبيس" فجأة وإذ بها تخاطب السائق في جرأة:

- يا عم حاسب! انتَ إيه أعمى؟!

تجاهل السائق ما سمعه وتحدَّث في اقتضاب وتأفف موجهًا حديثه إلى الركاب عامة:

- حمد لله على السلامة!

وأكمل حديثه في تنهد اللاهث "المقطوع نفسه من الجري":

- أخيرًا "الأتوبيس" وصل بالسلامة!

لم يدرِ وهو ينبس بكلمة "السلامة"... إن كان يقصد الرحلة أم النجاة من لسانها؟!

*****

الشارع الشهير!

اقتحمَ صمتَ تأملي جدلٌ صاخبٌ انفجرَ في دائرة سمعي فجأة! اجتمع لركاب الحافلة تركيزهم، وانسحب كلٌّ منهم عن خصوصية تأمله إلى موضوعٍ أدلى كلٌّ فيه بدلوه!

لم أستطع أن أتبين بداية الخيط من نهايته، فقد بدا لي حديثٌ مرتبكٌ متداخلٌ... التقطتُ سؤالًا تكرر مرة بعد مرة على لسان سائلٍ بإلحاح ذبابة:

- فين شارع "عباس العقاد"؟ عايز أنزل شارع "عباس العقاد"، مش الأتوبيس رايح هناك برضه؟!

سؤال عادي طُرح على لسان شخصٍ عاديٍّ... سؤال عن شارع شهير!

لم يحرك الأمر ما ركد من اهتمامي بشيءٍ، فمن ذا الذي لا يعرف الشارع، وكذلك الأديب الكبير، فمن يجهله؟!

والعجيب أن توجيه اللوم إلى السائل كان أسبق من الإجابة عن سؤاله! كيف به يجهله وهو من هو؟!

عجبت أن صاحب الإجابة كان يقصد الشارع لا الشخص! بدا ذلك واضحًا في وصف معالم المكان بدقة، وتخبطه في وصف الشخصية التي أكدت أقواله في حقه الجهل التام به!

- يطلع مين (عباس العقاد) ده اللي مش عاجبك كلامنا عنه؟!

قذف بها أحدُهم في وجهي، وهو يراقب بتأففٍ ملامحَ الاستنكار التي ارتسمت على وجهي!

أجاب آخر:

- أنا طول عمري بروح وباجي على الطريق ده، طول عمري أعرف الشارع ده كويس، يا عم ده اسم شارع مش اسم بني آدم، هو لازم تفلسفوا كل حاجة وتعملوا لها خمسين سبب! ده شارع وخلاص، هو لازم يكون على اسم حد يعني؟!

وأخيرًا خرج من الجمع رجلٌ وقف في صفي، ووجَّه إلى جمعهم حديثه باجتراء:

- الله يلعن الجهل اللي موديكم في داهية ده! فيه حد ما يعرفش الأستاذ العقاد يا جهلة؟!

ثم أردف سؤاله بسؤال آخر وجهه إليَّ مباشرةً، بعد لحظة من التأمل:

- بس... تفتكر يا أستاذ ليه سموا الراجل على اسم الشارع ده؟! أكيد كان عايش فيه، أو على الأقل اتولد فيه!

وَأَدْتُ ضحكةً ساخرةً في مهدها، فاكتفيت بالإشارة العصبية التي تولَّدت في مخي بعد أن قطعت عليها طريقها وحبستها، فالموضع ليس موضع ضحكة، ولو كانت ساخرة!

وتعرفت في نظرات من حولي وقرأتُ على شفاههم كلَّ معاني السخرية التي حُرِّرت من عقالها تجاهي، فصمتُّ عاجزًا عن الردِّ.

اجتررتُ أفكاري، وأنا أتابع حديثهم، وابتلعت صمتي شاردًا، وهزني بعنف تساؤلٌ:

- حقيقة، من منهما طغى على شهرة الآخر الشارع أم صاحبه الذي وُضع اسمه عليه؟! من منهما الأعلى يدًا، والأكثر شهرة رجلٌ أم مكانٌ؟!

سكَّنت نفسي بعض الشيء وأنا أنظر للأمر من زاوية أخرى:

"ربما يستقيم الأمرُ العجيب لو نظرنا إلى الأماكن بقيمتها؛ فهي الوطن، ومحل الميلاد، ومسقط الرأس، ومسار الحياة!

لكن ما أظلم الناس حين ينكرون سعيك، أو ينسوه!

لو كان (العقاد) حيًّا بيننا تُرى ما سيكون ردُّ فعله!

الرجل الذي حارب الجهل في عقول الناس، مع الأسف اندثر في عقول قطاع كبير من الناس!"

جميعُها أفكارٌ دارت برأسي كما دارت عجلات الحافلة طويلًا حتى توقفت بمحطتها الأخيرة بموقف "شبرا"، لا بمدينة نصر!!

ولا يزال الرجل يسأل:

- حد يعرف إزاي أروح شارع "عباس العقاد" يا اخونا؟!

*****

يا فراشة لا تقربي اللهب!

الفراغُ بلا شكٍّ نعمةٌ، إذا أحسنَ الإنسانُ استغلالها فتحَ بابًا متسعًا يدخلُ منه إلى عالمِ أحلامِه فيحقِّقها، لكنَّه أحيانا يكونُ نقمةً إذا لم نستغله فيما هو مفيد... وحياةُ كثيرٍ من شبابنا تقعُ في ذلك النوع الثاني من هذا التصنيف... كما في مثل تلك الحالة...

مجموعةٌ من الفتيات في مطلعِ الشباب يتنافسن في كلِّ ما هو تافه وغير مفيد... يسعين دومًا خلف الأزياء، والموضة، ويتباهين بالوقت الذي يضيعنه في النوم حتى ينتصف النهار وقد يمتدُّ بهن إلى وقت العصر، ويتنافسن في القدرة على السهر، وعدد الساعات التي يقضينها أمام "النت"، و"التليفزيون"... تلاقتْ "الشلةُ" في موقعها المفضَّلِ المطلِّ على حمام السباحة بالنادي الكبير الذي لا يجرؤ أحدُ عامةِ الشعبِ حتى على المرورِ من أمامه...

تفتَّحت مداركُ فتيات تلك "الشلة" على أنَّ الناسَ طبقاتٌ، ووضعت كلُّ واحدةٍ منهن نصائحَ والديها "كالحلقة في أُذُنِها": ألَّا تختلطي بالدهماءِ من عامةِ الناسِ! وكلُّ شيءٍ في حياتهن يخضعُ لتلك النصيحة... في المدرسة... في النادي... في السكن... حتى في وسائل المواصلات التي

تضطرهن ظروفهن أحيانًا إلى رؤية مرتاديها من خلف زجاج السيارة "الفاميه" الذي لا يُرى مَنْ وراءه... ولو كان بالإمكان لجعلن الزجاج معتمًا فلا يرين ما يمكن أن يفسد عليهن مزاجهن طوال يومهن... لكن لا حيلة، فقد تدفعهن الظروف ليرين البسطاء من الناس من خلال خدمات يقدمونها لهن، فلا يُعقل أنْ يخدمن أنفسهن وهن "كريمة المجتمع" والطبقة الراقية...

جلستْ فتياتُ "الشلة" حول حمامِ السباحةِ... وطرقتْ ضحكاتُهُن العاليةُ مسامعَ (حامد) ذلك الشاب الضئيل الذى كان يميِّزُه زيُّ عمالِ النظافة بالنادي الشهير، فطمعَ في اختلاسِ المزيد من النظرات إلى الجميلات اللاتي أضفت إليهن ملابسهن المثيرة ما يذكِّره بنجمات السينما... تردَّدتْ أصداءُ تلك الضحكات العابثة، ثم خمدتْ لتغرقَ في بحرٍ من الصمتِ، وتبدَّلتْ بنظراتٍ حائرةٍ تنمُّ عن حالةٍ من السأمِ الشديدِ...

تحدَّثتْ إحداهُن عن وسيلةٍ يقضين بها على المللِ الذي استولى عليهن، وعلى الروتينِ المميتِ الذي اعتصرهن في قبضته، فالأيامُ عندهن متشابهةٌ... وأكبرُ مشكلةٍ يعانين منها ألَّا مشكلة! كلُّ الطلباتِ مجابةٌ... لا شيءٌ يستعصي عليهن... لابد من وسيلةٍ للتسلية تكسرُ حاجزَ المللِ! وأيُّ وسيلةٍ أفضل من التنافس على رهان! وهكذا اعتدن أن يشعلنها منافسةً حاميةً

حول أيٍّ شيءٍ، وينقسمن فريقين أو أكثر في مضمارِ منافسةٍ على شيءٍ صعبٍ أو سهلٍ لا يهم، المهمُ تضييعُ الوقتِ بالتسلية و"التريقة" على خلق الله!

نظرتْ (ناني) الفتاةُ الثريةُ المدللةُ بارعةُ الجمال حولها تبحثُ عن مادة تستخدمها في ذلك الرهان... لم يطلْ بها البحثُ فقد وقعتْ عيناها على ذلك الشابِ المتطلِّعِ إليهن من بعيد...

حدَّدت (ناني) ذلك الشابِ ليكونَ رهانَها معهن عليه...

أجابتها رفيقتُها:

- ده شكله غلبان... إيه رأيك في واحد من أصحابنا الأولاد؟

داعبتْ (ناني) خصلاتٍ ذهبيةً انسدلتْ على عينيها، وقالتْ في ثقةٍ:

- دول طالعين فيها، والواحد منهم بيصاحب بنتين وثلاثة، لكن الشاب ده بمجرد ما أشاور له هيجيني... "مش هيستحمل في إيدي غلوة"...

وفي النهاية... استقرُّوا على ذلك الشاب... (حامد) عامل النظافة في النادي... اتفقن على تلك الخطةِ وتضاحكن:

- هتكون فُرْجَة هنتسلَّى ونضحك من هنا للصبح!

وانطلقتْ (ناني) لتنفيذِ خطَّتِها... سارتْ بعضَ خطواتٍ... وعندما أصبحتْ على مقربةٍ منه صوبَّتْ إليه نظراتِها الجريئةَ، وبادرته بابتسامةٍ

ساحرةٍ، ثم تظاهرتْ بسقوطِ حقيبتها أمامه... وعلى الفورِ انحنى ليرفعَها وهو في أشدِّ حالات الارتباك... انحنتْ (ناني) قليلًا لتأخذها فاقتربا أكثر والتقتْ الأعينُ مباشرةً... شكرته بمودةٍ، وببسمتها الساحرةِ ودَّعته...

لم يلحظْ (حامد) في بحرِ مشاعرِه الفيَّاضِ رفيقاتِها من الفتيات وهن يضحكن ويتغامزن...

انصرفَ من النادي إلى بيته يطيرُ بأجنحةِ السعادةِ والهناءِ... كانتْ الدنيا في عينيه ورودًا ورياحين... حتى بيته - البسيط الضيق المكتظِّ بإخوته وأخواته- رآه قصرًا... لم تَغِبْ عن بالِه لحظةً... نظراتها إليه... كلامها القليل معه... سعادته بسؤالها عن اسمه... وتصريحها بالإعجاب به الذي جسَّدَ كلَّ ما دارَ بينهما... كلمات... بسمات... نظرات... زهرات نضرة اجتمعن معًا ليصنعن باقةً جميلةً تشعُ في قلبه عبيرًا وبهجةً... لكنَّه فجأة تذكَّرَ وضعَهُ إلى جانب وضعها... فهو الشابُ الذي لم يستطعْ أن يستكملَ دراسته واكتفى بالدبلوم، بينما هي ابنة الجامعة الأمريكية... تذكَّرَ ما هاله من حديث العاملين بالنادي عن والدها المليونير الكبير أحد الأعضاء المؤسسين للنادي - الذي يعملُ هو به مجرد عامل نظافة- ذلك الرجل الثري ذو المكانة والوجاهة... كيف يتسنَّى لوالده الموظف البسيط الذي خرجَ على المعاشِ - بعد أنْ أكلتْ الوظيفةُ الحكوميةُ نضارةَ وجهِه- أن

يضعَ يدَهُ في يدِ واحدٍ من أغنى أغنياء البلد... لا يمكنُ أن يتحقَّقَ مثلُ هذا الارتباط ولو في الحُلم!

وتمرُّ الأيامُ وفي كلِّ يومٍ تفتحُ له بابَ الأملِ أكثرَ وأكثر... حتى أصبحَ يحيا على أملِ الارتباطِ بها... تمالكَ شجاعته... حدَّثها صراحةً عن حالِه الذي لم يكن يخفى عليها، وعن حبِّه الطاهر... حدَّثها عن خوفِه من رفضِ والدها المتوقَّعِ... أحيانًا كانَ يضعُ نفسَهُ مكان الأبِ الثريِّ الذي ربَّما ذكَّرَه موقفُه منه بموقفِ الباشا والد (إنجي) من (على) ابن الخولي في قصة "رد قلبي" الذي كادَ يضربُ والده بالكورباج عندما فاتحه في طلب يدها لابنه، واكتفى بطرده وعائلته... كانَ يراها شعلةَ نارٍ متوقدةٍ تشعُ نورًا يعمي الأبصارَ تجذبُ كلَّ من يراها، ويرى نفسَهُ فراشةً تنجذبُ إلى نورِها فتحرقها نارها! وتنساقُ إلى حتفها بيدها!

لكن (ناني) هدهدتْ مخاوفَه التي كانتْ تختلجُ في صدرِه... وطمأنته أنَّ والدَها "راجل لارج" يحترمُ اختيارها ولا يمكنُ أن يضغطَ عليها... هي تحبُّه وتراه زوجًا لها، فهو فارسُها وإن كانَ يركبُ حمارًا أعرجَ!!

ودَّعته (ناني) وانطلقتْ في صحبةِ صديقاتها... يكتمن ضحكاتهن عن مسامعه لا لشيءٍ إلا الخوف من إفساد الخطة المرسومة... وقد بلغَ من تصميمِها على إتمامِ تلك التمثيلية أنَّ إحدى صديقاتها عندما حذَّرتها من

مغبة ذلك، وحاولتْ استدرارَ عطفها على الشابِ المسكينِ، أن اتهمتها بالغيرة منها... أخبرتها أنَّها ماضيةٌ في خطتها حتى وإن تراجع الجميع!

ابتلعتْ ضحكاتُ باقي "الشلة" جميعَ ما اعتمل في قلبِ منافستها من شفقةٍ وإنسانيةٍ وأصبحن كالوحوش الضارية في هيئة الجميلات، فالرِّقَّةُ قلوبٌ وليستْ مجردَ صورٍ، ومفاتنٍ، ومكياجٍ...

لم تلبث (ناني) قليلًا حتى أحسَّتْ بالمللِ والفتورِ، فقد أوقعتْ صيدًا سهلًا لم تَبْدُ منه أَيَّةُ مقاومةٍ، لذا قرَّرتْ أنْ تنهي الأمرَ سريعًا فتسدلَ الستارَ لتبدأ رواية أخرى مع بطلٍ جديدٍ...

كانتْ (ناني) تجلسُ كعادتها بين أترابها يتسامرن... فتَّشتْ عنه بعينيها... وجدته... كانَ دومًا قريبًا منها... يجدُ سعادته في رؤيتها وإن كان يراها من بعيد...

انطلقتْ إليه، وصديقاتُها يراقبن... أسرَّتْ إليه حديثها أنَّها لم تعدْ تحتملُ فراقَه... واعدته في فيلاتها لمقابلة والدها الذي لا يهتمُ إلَّا بها وبزوج المستقبل الذي لا يهم كونه غنيًا أو فقيرًا... سيغدقُ عليه المالَ ويشتري سعادةَ ابنته وزوجها بكلِّ ما معه...

- لا تخفْ! فأنا أقف بجانبك، ولن أتخلى عنك...

انطلقَ فرحًا يحلِّقُ بأجنحةِ السعادةِ عاليًا يطيرُ فوق السحابِ...

حانَ الموعدُ فسبقه الشوقُ إلى بيتها... ذهبَ وحده... كانَ يخشى على والديه من التعرُّضِ لذلك الثراء الفاحش فيخرَّان مغشيًا عليهما من هول ما يريان!! فليتلقَّ هو الصدمةَ الأولى وحده! فكما أنَّ الأحداثَ المحزنةَ تمثلُ صدمةً قاسيةً فأحيانًا الأحداثُ المفرحةُ تمثِّلُ صدمةً أقسى، ويستوي وقعُ الصدمة الشديدة على النفسِ سواءٌ كانتْ مفرحةً أم محزنةً فكلاهما قد تكونُ قاتلةً!!

وقفَ على أعتابِ فيلاتها الفخمة... كانَ موعدُه مع رجلِ الأعمالِ محددًا بالثانية والدقيقة، فقد كانَ الوقتُ المُخَصَّصُ له لا يتعدَّى وقتَ ارتشافِه فنجانِ الشاي في حديقةِ الفيلا وقت العصرية...

كانَ (جودت) بك في انتظاره، لم يكنْ يعرفُ عنه سوى أنَّه جاءَ يتقدَّمُ لخطبةِ ابنته - وبالضرورة هو ابن عيلة كبيرة- ومَنْ يجرؤُ ويتقدَّمُ لابنته إلَّا أولاد الذوات "المأصلين" أمثاله... لم يكنْ الأبُ بالطبع مشاركًا في تمثيلية ابنته، فقد كانتْ حريصةً ألَّا تخبره بحقيقةِ الشابِ لتضمن أن يكونَ تصرُّفُ الأبِ طبيعيًّا مما يعطي للتمثيلية عنصرَ التشويقِ، والمتعةَ، وجوَّ المفاجآت المثير...

عبرَ (حامد) بوابةَ الفيلا الضخمة التي وجدها مفتوحة... ليخطو خطواتٍ واسعةً في ممشى حديقةٍ مترامية الأطراف خضرتُها تشرحُ القلبَ، وإذ برجلٍ أشيبَ ضخمِ البنيةِ تبدو عليه علامات الثراء والغنى يجلسُ أمام منضدةٍ من نوعِ الأثاثِ الذي يُستخدمُ في فرشِ "الفراندات" والحدائق، كان يرى مثله أثناء عمله في النادي... وقفَ أمامه، وحيَّاه مبتسمًا... رفعَ (جودت) بك عينيه عن الصحيفة التي كانَ يقلِّبُ صفحاتِها والسيجارُ في فمه، فتمهَّلَ في ردِّ التحيةِ حتى نظرَ إليه وفرزه من رأسه إلى أخمصِ قدميه... يبدو أنَّهُ لم ترُقْ له بساطتُه التي بدت عليه، وإن كانَ قد ارتدى أفضل ما عنده، فالرجلُ الخبير كانَ يعرفُ قيمةَ الرجلِ من ثيابه الغالية ذات الماركات العالمية... نظرَ (جودت) بك شزرًا ونفثَ سحابةً سوداءَ من دخانِ سيجارِه الغليظ... غمرتْ أنفاسَ الشابِ فسعلَ وارتبكَ...

وإذ بـ (عثمان) البواب يسعى إليه مهرولًا على الرغم من علاماتِ الهرمِ التي بدتْ واضحةً على هيئتِه المنحنيةِ، وخطواته التي لا يستطيعُ أن يسيطرَ عليها محاولًا اللحاقِ بالشاب الذي دخلَ من البوابةِ أثناء انشغالِه عنها... فانفجرَ فيه قائلًا بلكنته النوبية الواضحة:

- هيه وكالة من غير بواب؟!

وقبل أن يسوقَ الشابُ مبرِّرًا...

سدَّدَ (جودت) بك نظرةً ناريةً إلى (عثمان) وانطلقَ فيه كالمدفع:

- انتوا نايمين على ودانكو؟! انت كبرت يا (عثمان) وخيبت؟! إزاي تسيب الباب سداح مداح لكل من هب ودب؟! دي أشكال تدخل بيتي؟!

حاولَ الشابُ أنْ يوضِّحَ موقفَه، وأنَّه هو الشخصُ المقصودُ الذي ينتظرُه في الموعدِ المحدَّدِ لخطبةِ ابنته... لكن عمَّ (عثمان) تعلَّقَ به بكلِّ ما أوتي من قوةٍ ليجرَّهُ بعيدًا عن (جودت) بك وهو يقولُ:

- اخرج معايا! إحنا ما صدقنا مزاج البيه بتاعنا بقى كويس... اخرج ما تعكرش مزاجه!

استسلم (حامد) ليديَّ الشيخِ الكبيرِ بغيرِ مقاومةٍ حتى أخرجَه من البابِ الخارجيِّ ليغلقَه من الداخل بالسلسلة الضخمة وهو يقولُ:

- امشي! الله يجازيك هتخرب بيتي!

وقف (حامد) على بعد خطواتٍ من بوابةِ الفيلا مبهوتًا لا يعرفُ ماذا يقولُ... وبينما هو على هذا الحال أقبلتْ السيارةُ الفارهةُ التي تقودها (ناني) تزدحمُ "بشلة" من صديقاتها...

وكأَنَّ (حامد) وجدَ "اللقية"... أسرعَ إليها ليخبرها بسوءِ التفاهم الذي حدثَ مع والدها... تعالتْ الضحكاتُ... انفجرتْ من السيارةِ انفجارًا... ولا يزالُ صاحبنا متعجبًا مما يدورُ حوله... لم يَعِرْ (حامد) ما

حوله اهتمامًا، ولم يلقِ بالًا بما يسمعُ من كلماتِ السخريةِ على لسانِ صديقاتِها... استغنى عن كلِّ ذلك بالنظرِ إلى وجهها لعلَّها تشفي صدرَهُ بكلمةٍ وتطمئنُه!

خلعتْ نظارتَها الشمسيةَ الكبيرةَ التي تغطي نصفَ وجهها... بادرتْه بنظرةٍ ساخرةٍ وابتسامةٍ تحملُ من التهكمِ والاستهانةِ ما تحملُ... أجابته بكلمات لا تقل فظاظةً عن كلماتِ والدها:

- انتَ اتجننت؟! أنا اتجوِّزك انتَ؟! انتَ نسيت نفسك؟!

تعالتْ ضحكاتُ صديقاتها، بينما استماتتْ أصابُعها على "كلاكس" السيارةِ، وأقسى كلماتِ السبابِ ترتفعُ فوقَ صوتِ "الكلاكس" تصبُّ لعناتِها على عمِّ (عثمان) الذي خرجَ أخيرًا من الحجرةِ الصغيرةِ المُخَصَّصَةِ له... هرولَ مرتبكًا... مدَّ يدَه المرتعشةَ ليفتحَ القفلَ ويجرَّ السلسلةَ الضخمةَ... جذبَ البوابةَ لتنفتحَ على مصراعيها وتنطلقَ السيارةُ إلى الداخل وقد امتلأتْ رئةُ الشابِ بغبارِ الشارعِ ودخانِ عادمِ سيارتها، ثم ابتلعتها حديقةُ الفيلا في لحظاتٍ لتختفي عن الأنظارِ...

لم يكدْ يهدأُ جسدُ عمِّ (عثمان) من الجهدِ المضاعفِ الذي بذلَه حتى ناداه (جودت) بك بنبراتٍ غاضبةٍ:

- اقفل البوابة! وما تفتحش لحد! لا مواعيد ولا غيره!

استوى (جودت) بك قائمًا بعد أنْ ألقى الصحيفة على المنضدةِ في ضجرٍ، واندفعَ إلى داخلِ الفيلا متمتمًا في غضبٍ:

- شباب إيه بتوع اليومين دول؟! أنا هفضل استنَّاه لغاية إمتى؟! كان على أيامنا الشباب بيحترموا مواعيدهم... هيكون لي كلام تاني مع البنت دي علشان بعد كده تختار حد يحافظ على مواعيده!

*****

الفهرس

مقدمة ٥
الدنيا مظاهر ٩
أزمة أخلاق ١٩
ونِعْمَ التربية!.. ٢٥
غش جماعي! ٣١
المال الحلال مايضعش! ٣٧
كلام في السياسة!.. ٥٣
العين وحشة! ٥٩
كعك العيد ٦٣
بلكونة بحري!.. ٦٩
مكتب بدورين! ٧٣
مجرد همزة!.. ٧٩
اثنين غيرنا! ٨٥
تشابه أسماء!... ٩١
ولاد الحرام مخلوش لولاد الحلال حاجة! ٩٥
"عامل من بنها!" ١٠١
ثمن الشهامة ١٠٧
الشارع الشهير!... ١١٣
يا فراشة لا تقربي اللهب! ١١٧

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.